ثانيا : بخلاء الجاحظ

ثانيا : بخلاء الجاحظ

انها حقيقة لا تقبل الجدل والنقاش حولها . كل أمة تعتز وتفخر بماضيها . وكل شعب من الشعوب يتعلق باعلام وطنه من الأدباء والفلاسفة والفنانين . وكل مواطن فرد له نموذجه الذى يحتذيه ومثاله الذى يحاكيه . ففى انجلترا هنالك شكسبير وديكنز وملتون وبرناردشو . وفى فرنسا بلزاك وزولا وفلوبير مونتيسكيو وديجول واندريه مالرو . وفى المانيا جوته . وفى الهند طاغور . وفى روسيا تولستوى ودستويفسكى وتشيخوف .

ويقف الجاحظ واحدا من المعالم الثابتة الشامخة فى ادبنا العربى ، وسط عدد كبير جدا من الفلاسفة والمفكرين والكتاب . اذا فان الرجوع الى كتاباته ، واقواله ، ضرورة تحتمها الرغبة فى الاستناد الى الأصول الثوابت ، ويستلزمها الحرص على أن يكون ثمة نموذج يحتذى . فيه يتجسد المثال الحق للاديب ذى الأسلوب المتميز ، والمنهج الواضح ، والرؤية الاجتماعية ، والنظرة الموضوعية .

وهذا يبدو جليا فى مختلف آثاره وكتبه ومخطوطاته . ومن ثم ينبغى أن يقدم للناس العاديين حتى يعرفوا جانبا من جوانب تراثهم . بحيث لا يقف تصورهم للأدب او للثقافة عند حد من يقرأون لهم فى هذه الأيام .

كاتب ذو افق واسع ، وثقافة شـــاملة ، ووعى عميق بحركه الحيـــاة فى المجتمع من حوله ، وقـــدرة فائقه عـــلى الحـــوار الديمقراطى ، والجدل الجاد الموضوعى .

وفى محاولة لتوثيق الصلة بيننا وبينه ؛ سوف تكون حلقة الاتصـــال صفحات من كتابه « البخلاء » . نقرا فيها ، ونتأمل سطورها ، ونقف عند صورها . ثم نحاول الاشارة الى امتداداتها وتأثيرها فيمن جاء بعد من الكتاب الذين عالجوا نفس الموضوع الذى دارت حوله صفحات « البخلاء » .

ذلك أن هـــذا الكتـــاب يحمل لونا متميزا قدمـــه الجاحظ الى المكتبـــة العربيـــة . من خـــلال نثر فنى جيد . وصـــور انســـانية متحركة . وشخصـــيات منتخبـــة من واقـــع الحياة العربيـــة فى عصر الجاحظ . وجـــاء فى النهاية لونـــا من الوان الاحتجاج على التناقض الطبقى الذى كان ســائدا . فقد اختار شخصيات الكتاب من طبقة واحدة معروفة ومتميزة . لها تكوينها وبناؤها المـــادى والفكرى والنفسى . ولها مصالحها الفردية ، وقدرتها على الامتلاك والتكديس واحتكار الثروة . لعل اختيار صفة « البخل » عند افراد هذه الطبقة من الأثرياء والموسرين ، واحد من أساليب الجاحظ فى اعلان موقفه الاجتماعى والفكرى معا . وما السخرية المرة ، والفكاهة اللاذعة ، الا تأكيد لرفضه هذه الطبقة وما تستند اليه من أخلاقيات وقيم ، وما يصـــدر عنها من سلوك .

وصـــفحات « البخـــلاء » لن تكـــون ناصـــعة واضـــحة مفهومه ، الا بعد الاحاطة بعالم هذا الكاتب الكبير ؛ وشخصيته ، وظروفه ، وثقافته ، وتآليفه ، وموقع « البخلاء » من مؤلفاته ،

ومكانته ، واثره . وهذه النقاط — جميعا — تضيف الى معرفتنا بالكتاب ، وتسهم فى معايشة الكاتب معايشة تامة .

طفل صغير يتيم ، اشتغل ببيع الخبز والسمك فى صغره مساعدة لأمه ولنفسه . لايستهويه الطعام والشراب واللعب ، شأن اترابه : وانما يستهويه لوح الكتاب الذى يتعلم فيه . والدفاتر والكتب التى تصل اليها يده . يلتهمها التهاما . ويستغرق فيها استغراقا . ويطلب منها المزيد دائما . نشأة فقيرة كادحة ، تدفع الى الكفاح الاجتماعى ، والبحث عن لقمة العيش ، وعن غذاء العقل معا . ولعل الجانب الأخير هو الذى سيطر على فكر وعقل هذا الانسان . ربما يكون قد وجد فيه شيئا يلهيه عن اترابه ، حتى لا يستلفت نظرهم ما يبدو على وجهه من قبح وبشاعة . وربما يكون قد وجد فى العلم والقراءة والاطلاع والتفكير ما يعوضه عما افتقده من جمال الصورة ودقة الملامح .

يقول « المرتضى » فى كتابه (الأمالى غرر الفوائد ودرر القلائد) عن الجاحظ انه كان (اذا وقع بيده كتاب قراه من أوله الى آخره أى كتاب كان) . وقال عنه « ابن النديم » فى (الفهرست) : (فأما الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكرى دكاكين الوراقين ويثبت فيها النظر) ويروى ياقوت الحموى فى (معجم الأدباء) عن ابو هفان انه قال : (لم ار قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ) . وعن طريق القراءة والمطالعة — اولا وقبل اى شىء آخر — استطاع الجاحظ ان يكون ذا ثقافة واسعة تجعل منه دائرة معارف حية . فقد وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب ، والدين ، والعلم ، والفلسفة ..

واذ نشأ فى بيئة اختلطت فيها النزعات الفارسية بالأصول العربية ، راى الا تفوته معرفة اللغة الفارسية . وتدل رسائله وبعض كتبه على انه لم يكن يجهل مبادىء هذه اللغة التى روى الكثير من ادبه ابنائها . وبخاصة انه استكمل ثقافته الانسانيه بقراءة ما ترجمه اساطين الفكر والترجمة من أمثال ابن البطريق ، وحنين بن اسحق ، وبختيشـــوع وغيرهم ، عن الهند واليونان والفرس . قرأ هذه الترجمات وتمثل الكثير من نصوصها . وخرج منها بمحصول وفير يوائم ثقافته العربية الأصيلة .

وقد ساعد على ذلك أن البصرة — حيث ولد الجاحظ — كانت هى والكوفة الموطن الأول للعلم والفلسفة والأدب . وانهما كانتا المصدر الخصيب للحياة الزاخرة التى حفلت بها بغداد فى نهايـة القرن الثانى . واصبحت بحق عاصمة السياسة والمعرفة فى الدولة العباسية . وانتقل اليها الجاحظ مثلما انتقل غيره من أعلام الفكر والأدب لعصره . يقول الدكتور طه حسين فى كتابه (من حديث الشعر والنثر) انه (فى آخر القرن الثانى تستحيل مدينة البصرة والكوفة الى معملين عظيمين ينتجان العلماء والشعراء والفلاسفة والمتكلمين ، وهما لا ينتجان لنفسهما ، وانما ينتجان لمدينة ناشئة وهى مدينة بغداد . كانت اذن مدينتا البصرة والكوفة معملين لهذه الطبقات المختلفة ، التى تمثل الحياة العقلية فى القرن الثانى . وكانت مدينة بغداد فى آخر القرن الثانى هى المكان الذى يذهب اليه من تخرجهم المدينتان : البصرة والكوفة) .

وقد عاصر الجاحظ اثنى عشر خليفة عباسيا . ولد فى خلافة المهدى ، وامضى صدر شبابه فى خلافة الهادى . وشب فى زمن الرشيد . ونبغ فى عهد المأمون . وتفتحت عيناه على الحكم الاسلامى ترتفع فيه اعلام العدل والمساواة والحرية بين المسلمين جميعا . ويتولى فيه الفرس والترك ارفع المناصب فى الجيش والحكومة مثلما يتولى العرب . وتنعم الدولة العربية وينعم معها العالم بالأمن والسلام . وتسير فيها نهضة ثقافية كبرى تكتمل فى عصر الرشيد . حيث يبدأ ظهور الجاحظ ونالقه فى بغداد . ويبلغ سلطان العرب والمسلمين اقصى المدى . لكن الجاحظ يعاصر كذلك آثار الفتنة التى غرسها الرشيد حين سمى الخلافة من بعده لابنه الأمين فاخيه المأمون فاخيهما القاسم ، كما قسم الدولة قبيل وفاته بين هؤلاء الأبناء الثلاثة .

ومع ذلك فان هذا العصر امتاز بحرية الفكر والأدب ، واتسعت فيه ميادين الفلسفة والعلم والثقافة ، واكتملت فيه الترجمة للآثار العالمية القديمة ، وبلغ فيه المد العربى الاسلامى اقصى مدى . كما ظهر فى هذا العصر اعلام كبار فى تاريخ الفكر العربى من امثال : أبو عمرو بن العلاء ، والحسن بن وهب ، واحمد بن يوسف ، وسهل بن هارون ، وسليمان بن وهب ، ويونس بن حبيب ، وابن الرومى ، والبحترى . لكن أحدا من اعلام هذا العصر لم يجدد فى الحياة الأدبية ما جدد الجاحظ ، ولم يخلد فى تاريخ البشرية خلود الجاحظ .

عاش الجاحظ عصره وزمانه . وكان له دور فى مجتمعه . ومن هنا كان تفرده وامتيازه . واذا كان عصره قد امتاز بحرية الفكر . فانه تمكن من تصوير هذه الحرية ، مما جعلها تبدو جلية فى علمه وفى دينه وفى أدبه . مثل الجاحظ فى كتاباته تشعب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمى المؤسس على العقل . خاصة وانه اخذ من كل علم بطرف ، حتى خاض فى أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والتاريخ الطبيعى وفلسفة اللغة وما الى ذلك . ومثل الجاحظ من جهة اخرى الأخلاق والعقائد ، وصور حال التجار ، وخزعبلات المسولين ، وسخافات الشبان المتخنثين ، وزندقة المتزندقين ، وغيرها من صور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية . وكانت وسيلته فى ذلك التصوير ، والتعبير ، والتفكير ؛ لغة نثرية أدبيه ، تستطيع ان تنقل ما يريده صاحبها الى القارىء بسهولة .

واذا كان الشعراء قبل الجاحظ ، اى قبل القرن الثالث للهجرة ، يتوارثون فى فن واحد : فكلهم يمدح ، وكلهم يهجو ، وكلهم يرثى . وقل منهم من يختص بالغزل والشعر السياسى : فان الكتاب فى القرن الثالث قد تقسموا فنونا مختلفة . وتخصص كل منهم فى فرع من هذه الفنون . فمنهم من تخصص فى الفلسفة والكلام . ومنهم من تخصص فى اللغة والنحو . وقليل منهم من يجمع من هذه الأشياء شيئا كثيرا . بل ان الحياة العقلية غلبت العقل على الخيال . ورفعت شأن النثر على شأن الشعر . وأكثرت

الكتاب وقلت الشـــعراء . ذلك أن العصر لم يكن عصر خيال واندفاع ، وانما كان عصر روية وتفكير عقلى . ومصدر هـــذا انما هو العلوم والفلسفات والعناصر التى دعت الناس الى أن يفكروا . وكان النثر هو اللسان الذى يعبر عن هذا كله . فقد أصبح فنا تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها .

وهكذا يأتى الجاحظ فيتناول فى كتبه أغلب الفنون التى تناولها الشعراء ، ويتفوق عليهم ، ويأتى بما لم يوفق الشعراء فى جميع عصورهم الى أن يؤدوه . واستطاع أن ينتقل باللغة العربية التى كانت توصف بأنها لغة فضفاضة ، شعرية ، رومانسية ، لا تحمل فكرا ، ولا تحتمل منطقا وجدلا ، الى مرتبة أفضل ؛ بحيث صارت لغة العلم والحضارة والفلسفة والفكر . وتطور بالنثر العربى الذى وقف عند حد التاريخ والقصص وعلوم الدين وبعض ما ترجم ابن المقفع عن الفرس أو ما ترجم من فلسفة اليونان . بفضـــل الجاحظ تطور النثر كثيرا . واصبح بعدئذ فن ترف ولهو يقـــوم مقام الشعر فى ارضاء الشعور .

هذا الفتى قبيح المنظر ، مشوه الوجه ، ناتىء العينين ، أصبح لسنادا فى عصره ، يلقى دروســه على العالم العربى بأسره . جمع الى قبح الخارج صفات كثيرة جعلت منه رجل العصر ، يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل . وقد لقى رواجا عظيما ؛ لسعة علمه ، وكثرة مؤلفاته ، واعتزاله ، وجرأته على التقاليد ، ونظره النقدى المستند الى التجربة والعقل ، واتساع آفاق موضوعاته .

اذ كان كل انسان يجد فيها ما يتطلبه . والتنوع الذى كان يبعد السأم ● وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس ● وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح . مما اوجد صلة بين الناس وبين ما مثله لهم . ذلك أن المعارف الاجتماعية التى اتسع فيها الجاحظ ، اتاحت لنزعته الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية الواقعية موضوعا لها . فاتيح — بالتالى — للأدب العربى هذا النوع من الأدب الموضوعى ، الذى لا تطغى عليه الذات طغيانا كبيرا . تلك السمة الذاتية التى ترجع الى قصور معارف الأدباء ؛ فلا تجد النزعة الأدبية مسربا لها ، الا التحدث عن النفس ووجداناتها .

على هذا النحو استطاعت الصفة العلمية للجاحظ أن تمد نزعته الأدبية بكثير من المادة والموضوعات والقضايا . حتى جاء ادبه من صنف آخر غير ذلك الصنف الذى يعتمد مرة على الصور الخيالية يولدها ويشققها ويتلاعب بها . ومرة على اللفظ وما يثيره فى الذهن وما يبتعثه فى الخيال ، فتتداعى المعانى بتداعى الألفاظ . وان كان هذا لا ينفى عن الجاحظ انه كان مرهف الحس . خصب الخيال ، قوى الملاحظة ، قادرا على التغلغل فى دقائق الموجودات . واستشفاف الحركات النفسية المختلفة . ساعده على هذا كله تمكن من العبارة الحية النابضة ، والتصوير الكاشف الذى يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها . فى بساطة ودقة وجمال . عبارته طيعة ، واسلوبه اللفظى بعيد عن التكلف والتعقيد والتعثر

اللفظى الذى يرجع فى كثير من حالاته الى قلة المحصول اللغوى . ينتخب مفرداته وكلماته بدقة بالغة ، بحيث تسهم فى الدلالة على ما يراد التعبير عنه .

ولعل هذه السمة فى كتابات الجاحظ هى التى جعلتهم يصفونه بانه « معلم بيان » . اذ راوا فيه بعض الحرص على أن يقدم الى النشء نماذج من بليغ الكلام . يضمنها كتبه المختلفة احيانا ، ويفردها بالوضع احيانا اخرى . مما يفتح للسان باب البلاغة ، ويدل الأقلام على مكامن الألفاظ ، ويشير الى حسان المعـــانى ، كما يقول فى كتابه (البيان والتبيين) . وكانت لديه قدرة على صناعة الكلام ، والمداورة بالمعانى المختلفة ، والاقناع بما لا يذهب اليه او يؤمن به . كما انه يستطيع مدح الشيء وذمه فى كثير من الموضوعات التى يعرض لها فى كتبه ، والتى يخصها بالتأليف . اذ يكتب كتابا فى ذم الكتاب وآخـــر فى مدحهم ، وكذلك فى ذم الوراقين ومدحهم .

لقد نظر الجاحظ الى « اللغة » نظرة تاريخية . ولو كان شيء مما نسميه فى عصرنا بـ « المعجم التاريخى » لكان لأبى عثمان مشاركة فيه . من ذلك انه عرض لمشكلات لغوية تتصل بالبيئة ، والتطور ، واللهجات ، واللحون ، مما يدفع الى الاعتقاد بانه كان مؤرخا ناقدا لغويا كبيرا . يدل على ذلك أن المادة اللغوية فى كتبه شيء غنى بالحياة . فهو يستقرىء النصوص المختلفة ، ليقف منها على فوائد لغوية لا نلقاها فى المطولات من كتب اللغة . كذلك

فانه ادرك ان علم اللغة ينبغى أن يقوم على الأصوات والدلالة . وان المعلم الذى يملك ادواته لابد ان يتناول هذه المواد فى منهج تعليمى قويم .

ولعل شخصيته اللغوية ، وثقافته ، وقدرته على الاقناع . وموقفه الفكرى والأدبى ، كانت — جميعا — وراء اباحته لنفسه أن يأخذ ما تقتضى اليه الحاجة ، وهو يكتب فى « البخلاء » و « الحيوان » او اى مصنف آخر . وليس من شك فى أن هذا الموقف جرىء جدا فى ظل ظروف حافلة بالتقليد ، وفى مناخ معبأ بالمدارس النحوية والخلافات بين المذاهب والعلماء . لقد اكثر من الكلم الدخيل فى « البخلاء » مما يتصل بأصناف الأطعمة والأشربة ، ومما هو خاص بالحياة البحرية وبيئتها البحرية والبرية . هناك الفاظ النخل والنبات والزرع ، وما تقتضيه هذه المواد من أدوات وآلات . وكلمات كثيرة تتصل بالسمك والحيوان البحرى . وكل هذا لا نعرفه الا فى الأدب الجاحظى . فاذا روى شيئا من كلام العامة ، او نوادر المولدين ؛ فانه يرويه على ما هو عليه ، لا يعربه ولا يحوله عن جهته ؛ لأنه يرى الاعراب يفسد نوادر المولدين .

يرجع هذا من بعض الوجوه الى واقعية الجاحظ ؛ والى انه كان يؤمن بالتجربة العملية والتطبيق الفعلى . ويستعين بالعقل والحواس والتجربة . وقد عبر عن ذلك كثيرا فى مثل قوله (ليس يشفيني الا المعاينة ، وكل قول يكذبه العيان هو افحش خطأ ، واسخف مذهبا ، وادل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة) .

واكد أن الخبر لا يصدق الا اذا اثبته العيان وحققته التجربة . انه لا يرضى عن الأحكام القائمة على النظر والسماع وحدهما . كما نبه الى اتخاذ الشك سبيلا الى اليقين . وقال : (اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له) . انه يمثلك عقلا لا يتقبل الا الحقائق الملموسة ، ويرفض الخرافات ، ويقف على الاعتقاد حين يجرب ويشك ويدعو الى الشك حتى تثبت صحة النظرية . فى الوقت الذى كانت فيه افكار المعلم الأول أرسطو مسيطرة على عقليات اكثر علماء العرب ، كان الجاحظ يرفض قبول ما يأباه العقل والمنطق ، حتى ولو كان مصدره أرسطو . وهذا مما جعله متحفظا فى قبول الغرائب التى سمع عنها أو طالعها فى مؤلفات الآخرين .

وهذا هو السر فى أنه لم يلجأ الى الصور الخيالية فى تعبيراته حينما يصف أو يصور . وانما كان يعتمد فى ذلك على الحس والواقع . فيعطى قارئه الحقيقة التى يريد بألفاظ حقيقية مباشرة ، تبرز المعنى فى جلاء ووضوح دون أن يجهد نفسه فى تلمس التشبيهات والاستعارات والكنايات وما اليها من هذه الصور التى يبتعثها الخيال . اداته فى ذلك احاطة باسرار اللغة ، وادراك دقيق لقيم الألفاظ ومعانيها ودلالاتها . فهو لا يضع اللفظ فى المكان الذى لا يصلح فيه غيره . ومن ثم جاء التصوير الحسى مظهرا من اهم مظاهر الاتجاه الواقعى فى نثره الفنى .

يقول « المسعودى » فى (مروج الذهب ومعادن الجوهر) :

(وكتب الجاحظ — مع انحرافه المشهور — تجلو صدأ الأذهان وتكشف البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة) . معنى هذا انه كان يخشى على القارىء من الملل اذا ما استمر يحدثه فى موضوع واحد . لذا جاء حرصه على ان ينوع وينتقل من موضوع الى موضوع . ومن ثم اتسمت كتاباته بالاستطراد ، الذى اصبح خصيصة من خصائصه ، وظاهرة من الظواهر التى امتاز بها اسلوبه . اسعفته فى ذلك ثقافته ، وسعة اطلاعه ، وحظه الوافر من المعرفة .

يكشف لنا الجاحظ عن انه كان يراعى مقتضى الحال ، وينظر الى القارىء نظرة خبير بنفسيته ، مدرك للاحوال المكانية والزمانية المحيطة به ، متفهم لحاجاته ومطالبه ، عارف اذواقه ومشاربه . وهو يعلم ان الرسائل الطويلة تثقل على جمهور القراء ، كما يؤكد ذلك فى (البخلاء) حيث يقول : (الا انى لا اشك على حال ان النفوس — اذ كانت الى الطرائف أحن ، وبالنوادر اشغف ، والى قصار الأحاديث أميل وبها ألحب — انها خليقة لاستثقال الكثير ، وان استحقت تلك المعانى الكثيرة ، وان كان ذلك الطويل لنفع ، وذلك الكثير ارد) . لذلك فانه يتحدث الى قارئه باسلوب طبيعى ، بعيد عن الصنعة والتمويه . تمتد عبارته تارة وتنقبض اخرى . ترسل تارة ارسالا من غير تمويج ولا تقطيع . وتقطع

تارة اخرى تقطيعا موسيقيا . وموسيقاها هى موسيقى التقطيع الطبيعى الماهر . ويميل عن جفاف الأسلوب العلمى المجرد . ويعمد الى الهزل فى مواطن الجد . فاذا نفس الكاتب الخليفة الظل ، المطبوعة على الدعابة والمزاح ، تتراءى فى كل حال وكل مقال ؛ واذا جفاف العلم يليه السرور ، واذا السرور تبعثه نادرة غريبة ، او مكـرة لطيفة . ولا شـك ان ذلك كان يروق ابناء العصر ، ويروج المصنفات ، ويفهم الحقائق وييسرها ● ولم يكن الجاحظ يطلب غير ذلك .

ومما يروى عن الجاحظ أنه كان مطبوعا على الظرف والفكاهة ، ميالا الى التفاؤل لا التشاؤم . يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح . وهو ابدا لطيف المعشر ، حلو الحديث ، حسن المحـضرة ، حاضر الجواب ، سريع النكتة ، ساخر سخرية ناعمة . وكان الى ذلك يحب اللهو وسـماع القيان والمغنيين ، لا يأنف الا مما يضيع الوقت سدى . والوقت عنده اثمن من المـال ، يحرص عليه الحرص الشديد ولما كانت طبيعة الجاحظ ميالة الى المرح ، نزاعة الى الضحك ؛ فاننا نجد « السخرية » عنصرا بارزا امتازت بها كتاباته . بل لعلها من اكثر الصفات شيوعا فى آثاره المختلفة ، حتى ما يكاد القارىء المتمرس به يبرىء قطعة من قطعه الفنية من أن تكون مشوبة بروح السخرية .

ونجد لدى الجاحظ دعوة الى الضحك والمزاح والفكاهة ، والدفاع عنها ، ورد ما يعترض به عليها ، كما نرى صورة بينة من

ذلك فى مقدمة (البخلاء) وفى ذلك الفصل الطويل القيم الذى تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة فيه ، فى (رسالة التربيع والتدوير) . وللجاحظ رأى محدود فى النادرة او فى الفكاهة يفصل فى ذكره فى واحد من اهم كتبه فى البيان والبلاغة العربية وهو (البيان والتبيين) وذلك حين يقول : (.... وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع ، وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفخم من الالفاظ والشريف الكريم من المعانى . كما ان النادرة الباردة جدا قد تكون اطيب من النادرة الحارة جدا وانما الكرب الذى يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس النادره الفاترة التى لا هى حارة ولا باردة) .

ويحدد الجاحظ فلسفته الخاصة بالضحك ، ومواضعه ، ومدى حاجة الانسان اليه ، حتى يصبح ضرورة من ضرورات حياته . يقول فى (البخلاء) : (وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما احد وقصر منهما احد ، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا . فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزح الا بقدر ، ومتى اريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشىء الذى له جعل الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا) . ويستند فى دفاعه عن الضحك الى الاسلام فيقول فى (البخلاء) ايضا : (وقد قال الله جل ذكره « وانه هو اضحك وابكى ، وانه هو اماث واحى » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت . وانه لا يضيف الله الى نفسه

القبيح . ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركب ، لأن الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته) .

ويستمر الجاحظ في دفاعه عن الضحك ، فيقول انه كان ذا منزلة خاصة عند العرب (ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام ، وبطلق وطليق ، وقد ضحك النبي ﷺ ومزح ، وضحك الصالحون وفرحوا . واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش الى الضيف) . ويرى الجاحظ أن للضحك مواضع يصلح لها . فضحك الانسان بمفرده ليس كضحكه بمشاركة الاخوان والأصحاب ، وهكذا . وكتابه (البخلاء) يصور كل ما للضحك من وجوه . فيه مضحك الشكل . وفيه مضحك الحركة . وفيه مضحك الكلمة . بالاضافة الى كون البخل ذاته موضوع سخرية . فهو يدخل في مضحك الطباع . ولو قيد لهنري برجسون ، أو لهربرت سبنسر ، أو دوجا . أو شابيرو ، وغيرهم ممن درسوا الفكاهة والضحك ، قراءة كتاب (البخلاء) لوجدنا كتاباتهم عن الضحك والمضحك تزخر بالاستشهادات منه . ان روح السخرية في هذا الكتاب سارية مترقرقة في كل صورة من صوره .

ويمكن لنا القول أن الجاحظ في جده ، وفي مرحه ، في لغته

وصوره واساليبه ، وفى موضوعاته ، والمواقف التى جسدها ؛ بل فى كل سطر خطه ؛ كان يستهدف « الانسان » العربى . بادئا بدراسة بيئته وظروفه وحركاته وسلوكه ، ونفسيته . مستهدفا تثقيفه واعادة بنائه بشكل صحيح وسليم . علمه كيف يقرأ ، وماذا يقرأ ؟ وكيف يكتب ؟ وكيف يتكلم ؟ وكيف تكون علاقاته الاجتماعية والانسانية . أحاطه علما بتاريخه وحضارته ولغته ، وطبقات مجتمعه ، واتجاهات الأفراد النفسية ، ومصالحهم الاقتصادية ، وكل ما يتصل بحياة « الانسان » على الأرض العربية . وصف له العواصم الكبرى : مكة ، والمدينة ، ومصر ، وبغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ودمشق . وعنى ببيان احوال الشعوب . ودرس الطبيعة والحيوان ، عاملا على اظهار وحدة الطبيعة ، وان أجزاءها التى تبدو للرائى مختلفة متباينة هى فى الحقيقة متساوية القيمة اوالخطر .

ونقرأ فى كتبه الكثير من التأملات الفلسفية التى صور فيها « الانسان » بشتى نوازعه . هذا الانسان الذى شغلت جبلته وسجاياه الفلاسفة والمفكرين من عهد افلاطون وارسطو الى عهد المتنبى والمعرى ، الى شوبنهور ونيتشه ، الى فولتير وروسو . والى عشرات المفكرين من المعاصرين ، المتشائمين منهم والمتفائلين . وكما شغل المفكرون والفلاسفة بهذا «الانسان» ؛ فقد شغل الجاحظ به ، فلم يترك ظاهرة من ظواهر حياة « الانسان » الا تناولها بالوصف الدقيق الذى يصور ملامحه

وطبائعه وخوالجه ، باسلوب واقعي ممزوج بروح من الدعابة والسخرية . وبهذا فانه استطاع ، قبل اثني عشر قرنا ، أن ينفذ الى اعمق اعماق الانسان ، والى غرائزه ، ورغباته المكنونة ، فيصفها وصفا دقيقا ، قريبا الى وصف علماء النفس لها . وبهذا جمع بين التصوير الداخلي ، والوصف الخارجي للانسان العربي اولا وقبل كل شيء .

يبقى ان نتعرف الى كتب هذا الكاتب الكبير . تلك التي يستطيع القارىء أن يظفر فيها بما سبقت الاشارة اليه . وطبعي ان اديبا كهذا جعل التاليف صناعته ، ان تتعدد كتبه ويكثر عددها . فما من باب الا ولجه باطمئنان . وكان موسوعيا ، متاثرا بعصره ، يستطرد في المؤلف الواحد الى عدة موضوعات . وبث ل هذا الاستطراد والتنوع صعوبة أمام مؤلفاته عند التصنيف . تلي هذه المشكلة المعقدة من حيث الكثرة أولا ، وتشعب الموضوعات ثانيا ، وكثرة النساخ ثالثا . مما يجعلها هدفا للانتحال أو للدس . كما يجعلها عرضة لاختلاف تسميتها . فالكتاب الواحد مثلا يرد تحت اربعة عناوين ؛ وقد يكون العنوان متقاربا بين كتابين مختلفين .

ايا ما كان الأمر ، فان الجاحظ خلف لنا مؤلفات كثيرة جدا ما بين كتب ورسائل . وقد قيل ان آثاره هذه بلغت ما يربو على الثلثمائة والستين كتابا . وهي تؤلف موسوعة علمية وادبية . ومما يؤسف عليه انها لم تكن تصل الينا كلها ؛ فقد ضاع منها

عدد يذكر . وأما ما وصل الينا منها فقد طبع معظمه ، ولا يزال بعضه مخطوطا ومبعثرا فى خزائن شتى بين الشرق والغرب . يقول « المسعودى » عن مؤلفاته : (ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه ، وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب الا ان أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع) . ويستطرد قائلا : (وله كتب حسان : منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين وكتاب البخلاء ، وسائر كتبه فى نهاية الكمال مما لم يقصد منها الى غضب ولا الى دفع حق ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه) .

يذكر « ياقوت الحموى » فى « معجم الأدباء » عددا كبيرا من مؤلفات الجاحظ : (كتاب الحيوان وهو فى سبعة أجزاء واضاف اليه كتابا آخر سماه كتاب النساء وهو الفرق فيما بين الذكر والأنثى وكتابا آخر سماه كتاب النعال قال ابن النديم ورأيت أنا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى ويكنى ابا يحيى وراق الجاحظ وقد أضيف اليه كتاب سموه كتاب الابل ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه وكتاب البيان والتبيين نسختان أولة وثانية والثانية أصح وأجود . كتاب النبى والمتنبى . كتاب المعرفة . كتابا جوابات كتاب المعرفة . كتاب مسائل كتاب المعرفة . كتاب الرد على أصحاب الالهام . كتاب نظم القرآن من ثلاث نسخ . كتاب مسائل القرآن .

كتاب فضيلة المعتزلة . كتاب الرد على المشبهة . كتاب الامامة على مذهب الشيعة . كتاب حكاية قول أصناف الزيدية . كتاب العثمانية . كتاب الأخبار وكيف تصح . كتاب امامة معاوية . كتاب امامة بنى العباس . كتاب الفتيان . كتاب القواد . كتاب اللصوص . كتاب صناعة الكلام . كتاب الأصنام . كتاب المعلمين . كتاب الجوارى . كتاب التربيع والتدوير . كتاب النساء . كتاب البلدان . كتاب الأخبار . كتاب ذوى العاهات . كتاب المغنين . كتاب العالم والجاهل . كتاب أخلاق الشطار . كتاب الطفيليين . كتاب الحاسد والمحسود ....) .

لم يفرق ابن النديم فى فهرسه ، ولا ياقوت فى معجمه بين الكتاب والرسالة . لذا جاء حصرهما جامعا للاثنين معا تحت اسم كتاب . غير أن المتداول من كتب الجاحظ المطبوعة التى وصلتنا : البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان ، والمحاسن والأضداد ، ورسائل المعاد والمعاش ، والتبصر بالتجارة ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، والجد والهزل ، والحسد والعداوة ، والدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ، والربيع والخريف ، والحنين الى الأوطان ، وصناعة الكلام ، والأصنام ، وكتاب المعلمين ، والجوارى ، والنساء والبلدان ، وجمهرة الملوك ، وكتاب المغنيين ، والاستبداد والمشاورة فى الحرب .

فى رسالته « التربيع والتدوير » تتجلى سعة اطلاعه . انشأها للتناذر على احمد بن عبد الوهاب ، ليصف فيها ما هو

عليـــه من دمامة الخلق وقبح التركيب والجهل . ويعابيه بمئة مسألة يطلب اليه الجواب عنها . مضمنا أسئلته جميع معارف عصره المشكلة فى المنطق والفلسفة والكيمياء والانسان والحيوان وتاريخ العرب وغيرهم من الأمم . وقد استقى معلوماته فيها من تاريخ العالم بعامة وتاريخ العرب بخاصة . ومن القرآن الكريم . والحديث ، ومن كتب الفلسفة والعلوم اليونانية والفارسية . وذكر فى هذه الرسالة أهم القضايا العلمية والفلسفية والتاريخية . فعرض لمشكلة المعرفة . وتناول قضية أصل الانسان وما بينه وبين القرد من تشابه . وقضية الألوان . وعرض لانتقال الصـــوت . وللمد والجزر وأثر القمر فيهما . وعرض للمرآة والصور التى تعكسها : أهى خيالية أم حقيقية ، وللقمر ، الى غير ذلك من أمور شغلته ، وفكر فى أن يشغل بها قراءه ، فى ثوب ساخر .

كذلك الحال بالنسبة الى كتاب (الحيوان) الذى حشد فيه شتى المعارف والنظريات العلمية السائدة فى عصره . وناقش فيه بعضها مناقشة سديدة ، لا نكاد نحس فيه شيئا من الجفاء العلمى او الحذلقة فى المناقشة ، او ثقل السرد ، والتقرير الذى نلاحظه فى غيره . فقد وفق فى أن يغلف تلك النظريات والمعارف والمناقشات بغشاء فنى جميل ، وان يبرزها فى صورة أدبية شائقة ، تظهر فى سياقه السهل ، والفاظه المناسبة ، وتفصيل الكلام ببعض الآثار الأدبية الملائمة ، الى غير ذلك من مظاهر الروح الأدبية ، حتى ليكاد القارىء ينسى انه يقرأ اشياء من العلم ، مأخوذا بتلك الموهبة

الفنية الظاهـــرة . ويعجب المســـتشرق « هارتمان » بكتـــاب (الحيوان) من زواية اخرى . اذ يرى انه حفل بنظريات علمية كانت فى دور التكوين ، مثل التطور ، والتاقلم ، وعلم النفس الحيوانى . وأن هذه النظريات المبكرة عند الجاحظ قد اكتملت بعدئذ . وربما بعد الجاحظ باكثر من أحد عشر قرنا .

ويقف كتابه (كتاب النساء) عند موضوعات يعتبرها الباحثون المحدثون من موضـــوعات علم نفس . مثل الفرق بين الذكر والأنثى ، واستعداد كل منهما . ونوع الحياة التى تلائمه اكثر من غيرها . بل انه فى كتاب (المســـائل) عالج موضوعات انسانية تعتبر متقدمة كثيرا عن زمانه ، مثل الغيرة ، وهل هى طبيعية فى الانسان أم انها من صنع المدنية .

وفى كل ما كتب الجاحظ كان يدعو الكتاب الى أن يكونوا محايدين عند التاليف . بمعنى انه كان يطلب من الكاتب أن يكون موضوعيا ، ينقل وجهات النظر المختلفة دون تمييز ودون عصبية ، وان يؤدى للقارىء حقه فى الاطلاع على وجهات النظر المختلفة . ومن توجيهاته : (واعلم ان واضع الكتاب لا يكون بين الخصـــوم عدلا ولاهل النظر مالفا حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذى يبلغ لنفسه حتى لو لم يقرأ القارىء من كتابه الا مقالة خصمه لخيل له انه الذى اجتباه لنفسه) .

ونزعم ان الجاحظ كان يؤمن بالتخصص ، ويؤمن بالمؤلف المثقف المتخصص الـــذى اطلع عـــلى موضـــوعه ، ويعـــرف ما يقوله فيه . واما آراء اشـــباه المثقفين التى تعتمد عـــلى

اطراف من المعرفة ونبذ من القول فهو مما لا يعتد به . يقول (ولو برز عالم على جادة منهج وقارعة طريق فنازع فى النحو واحتج فى العروض وخاض فى الفتيا وذكر النجوم والحساب والطب والهندسة وأبواب الصناعات لم يعرض له ولم يفاتحه الا أهل هذه الطبقات . والعامة لم يبلغ من قوة عقولها وكثرة خواطرها ان ترتفع الى معرفة العلماء ولم تبلغ من ضعف عقولها أن تنحط الى طبقة المجانين والأطفال) .

ومما يذكر فى هذا الصدد ان الجاحظ كان شديد القسوة فى سخريته من تلك الفئات التى خالطها بصورة خاصة ، والتى تدعى العلم والثقافة ، كالمتكلمين والمعلمين . ولم يكن يمنعه ويثير ضحكه مثل رؤيته انسانا يدعى علم الكلام ويتظاهر بمعرفة طرائفه وهو فى الحق لا يفقه منه قليلا أو كثيرا . فتصدر عنه حينذاك أفعال وأقوال ليس عند الجاحظ أمتع منها . وتزخر كتبه بأحاديث أصحابه البصريين من هذه الفئة .

بعد أن قدم الجاحظ مؤلفاته المتنوعة تلك ، وفى سنه خمس وخمسين ومائتين انتهت حياته الحافلة الزاخرة بالكتابة والتفكير والقراءة والتجربة . بعد أن ترك فى دنيا الأدب ثروة ضخمة من التآليف فى شتى فنون المعرفة ، مازالت تتناقلها الأجيال وتتدارسها بلذة وشوق ، فتجد عنده الأدب الحى والثقافة الانسانية التى ترمز الى حيوية العقل العربى المتطور الذى ما عرف قط التوقف والجمود ، بل التجاوب مع الثقافات العالمية المنطلقة .

ويحق لبعض القراء ان يتساءل : هل جمع الجاحظ ثروة تعادل تلك الثروة التى تحتفظ بها المكتبة العربية ؟ ! هل افاد ماديا بمثل ما استفاد غيره من ورائه أدبيا وحضاريا ولغويا ؟ ! .

يروى « ياقوت » فى « معجم الأدباء » أن ميمون بن هارون سأل الجاحظ : الك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم الجاحظ وقال : انما انا وجارية تخدمها وخادم وحمار . أهديت كتاب (الحيوان) الى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب (الزرع والنخل) الى ابراهيم بن عباس الصولى ، فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب (البيان والتبيين) الى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا الى تسميد ! وكذلك يروى عنه انه كان يقتنى الخدم الذين يخدمون اهل اليسار وأشباه الملوك ، ولكنه ظل مع ذلك من مولده الى نهاية حياته أديبا عالما ، لا يعدل بالأدب والعلم جاها ولا مالا ولا سلطانا .

ونختار من مؤلفات الجاحظ اشهر كتبه على الاطلاق : كتاب البخلاء . لنعرف ملامحه الأدبية ، وموقفه الاجتماعى ، وبناءه الفنى ؛ وامتداداته أو رحلته فى الكتب العربية التى جاءت بعده . هذا الكتاب الذى قال عنه الدكتور طه حسين : (وهو من أجود الكتب ، ويحق للعربية ان تفاخر به . هذا الكتاب جمع فيه الجاحظ اخبارا تتصل بالبخلاء الذين فى عصره تناول فيه المتكلمين والمعتزلة ، وقص من اخبارهم فى البخل اشياء كثيرة . وقيمة هذا الكتاب

لا ادرى أهى فى الجمال اللفظى واستقامة المعنى ؟ أم فى خصب المعانى ؟ أم فى هذا التصوير الدقيق الذى لا يقاس اليه تصوير ، تصوير حياة البصرة وبغداد فى عصر الجاحظ ؟ !) .

***

الف الجاحظ كتابه هذا (البخلاء) قبيل وفاته بأشهر معدودات . واذا كان قد توفى ٢٥٥ هـ ؛ فان معنى ذلك أن هذا الكتاب قدكتب فى ٢٥٤ هـ . ومعناه من ناحية أخرى ، أنه يضم تجربة المؤلف خالصة ناضجة ، وانه يحتوى على آراء كاملة فى الحياة والناس ، وان من يريد بلورة افكار الكاتب ومذهبه وأسلوبه ، يمكن ان يجد فى هذا الكتاب عونا أى عون .

ولهذا الكتاب نسخة خطية فى مكتبة « كوبريلى » تتكون من ٢٧٨ صفحة ، فى ١٧ سطرا لكل صفحة ، مكتوبة سنة ٦٩٩ هـ . ونسخة ثانية فى باريس تتكون من ٧٦ صفحة فى ١٥ سطرا لكل صفحة . وهى قطعة تمثل ثلث الكتاب ، وتقع ضمن مجموعة كتب هى : « فضل الكلاب على من لبس الثياب » لأبى بكر محمد بن خلف بن المرزبان ، وكتاب « نور العيون فى تلخيص سيرة الأمير والمأمون » لأبى سيد الناس الحافظ ابى الفتح محمد بن محمد .

بعدئذ ، ومنذ ١٩٠٠ أخذت طبعات الكتاب تتوالى . وكانت أول طبعة بليدن ، أصدرتها « دار بريل G. Y. Brill» ، وقد عنى بنشره وتحقيق نصه العلامة المستشرق الهولندى « فان فلوتن G. Van. Vloten» فى ١٩٥١ ظهرت باللغة الفرنسية ترجمة لهذا

الكتاب . تام بها الأستاذ شارل بلا Ch. Pellat . وفى سنة ١٩٢٥ قدم العلامة « وليم مرسيه Marcais طائفة من الملاحظات القيمة على نشرة « فان ڤلوتن » ، صحح فيها بعض الكلمات ، وفوم فيها بعض العبارات ، واشار فيها الى بعض المقارنات ! ونشرت فى مجموعة الأونسكو فى ١٩٥٠ Collection Unesco d'oeuvres Représentatives تلقف الحاج محمد السباسى المغربى نشرة فان ڤلوتن ، وقذف بها الى المطبعة ، دون أن يتكلف شيئا من أوليات ما ينبغى فى نشر الكتب ، وطبعها بمطبعة الجمهور المصرى ، فى ٢٢٧ صفحة . فجاءت طبعة مشوهة عن الطبعة الأوربية السابقة ، تحمل اخطاءها ، وتزيد عليها اخطاء فى الطباعة والنشر . وما لبثت وزارة التربية والتعليم المصرية (المعارف آنذاك) ان تنبهت الى شىء من واجبها فى هذا الصدد ؛ فعهدت بالكتاب الى الأستاذين احمد العوامرى وعلى الجارم ، فاظهراه فى نشرة يبدو فيها اثر الجهد والتحقيق سنة ١٩٣٨ ، معتمدين طبعة المستشرق فان ڤلوتن .

ثم نشره وحققه مكتب النشر العربى بالاشتراك مع لجنة من اعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق فى مطبعة ابن زيدون سنة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م ، باشراف بدر الدين النعسانى ، وخليل مردم بك ، وعبد القادر المغربى ، وعز الدين التنوخى ، ومحمد بهجت البيطار . كتب المقدمة أحمد أمين ، ويقع الكتاب فى ٤١٣ صفحة . واعتمدت هذه الطبعة التصحيحات التى قام بها فان ڤلوتن ،

دى جويه ومرسيه الذى نشر تصحيحاته فى المجلة الآسيوية W. Marcais Mel. H. Basset Paris 1925. 1/31 تلك التى سبقت الاشارة اليها آنفا .

كما نشر داود الجلبى مقالات تصحيحية عن اغلاط الطبعة الدمشقية لكتاب البخلاء فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد العشرون ، ١٩٤٥ ، الصفحات ٦١ — ٦٧ . وقام الأستاذ طه الحاجرى بنشر الكتاب سنة ١٩٤٨ فى دار الكاتب المصرى ويقع فى ٤٦٦ صفحة .

ونشر « رشر » قسما منه فى Ekcerpte U. Ubersltzunger U.S.W.S. 267—484 ثم الى جانب الترجمة التى قام بها الأستاذ شارل بلا ، فانه نشر كتابا بعنوان : صحف مختارة من كلام ابى عثمان الجاحظ ، يحوى منتخبات من ثلاثة كتب للجاحظ منها البخلاء ، طبع بباريس ١٩٤٩ . كما اصدر الأستاذ طه الحاجرى طبعة اخرى فى دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ، ضمن سلسلة ذخائر العرب ٢٣ ، ويقع فى ٥٠٧ صفحات . وتلافيا للوقوع فيما وقع فيه من تقدمه ، اعتمد الأستاذ الحاجرى فى تحقيقه كتاب البخلاء المخطوطة التى اعتمدها فان فلوتن قبله ، ومخطوطة ثانية فى مكتبة باريس الأهلية . كما رجع الى عدد كبير من كتب الأصول للبحث والتنقيب والمقارنة ، عندما كان يريد الناكد من نص من النصوص . وفى الكتاب وصف للمصادر التى استوحاها الحاجرى ، المباشرة منها وغير المباشرة . ومن ميزات هذه الطبعة ان المحقق قدم لها

بمقدمة تحليلية نقدية لكتاب البخلاء ، بحث فيها النزعة الفنية عند الجاحظ ومكانتها من نزعاته الأخرى . كما بحث فى كتاب البخلاء نفسه متناولا اصل وضعه ، مبينا خصائصه الفنية . والطبعة مذيلة بفهارس علمية للأشخاص والأماكن والأطعمة والأدوات والشعر . وهى تدل على ممارسة واعية ، وتفهم عميق للتراث العربى بعامة ، ولأعمال الجاحظ الكثيرة بخاصة .

وطبع فى دار احياء التراث العربى ببيروت سنة ١٩٦٠ ــ ١٣٨٠ هـ فى ٣١٥ صفحة . كما طبع فى دار اليقظة العربية للتاليف والترجمة والنشر بدمشق ضمن سلسلة عيون التراث العربى ، قدم لها احمد ظافر كوجان فى سنة ١٩٦٣ ويقع فى ٥٤٩ صفحة . وفى نفس السنة أصدر الأستاذ طه الحاجرى طبعة اخرى ، وجاءت فى ٤٣٠ صفحة ، صدرت عن السلسلة ، والدار ، اللذين اصدر بهما طبعته السابقة . وكذلك جاءت الطبعة الخامسة فى سنة ١٩٧٦ وتقع فى ٥١٠ صفحة . وبين طبعتى الأستاذ الحاجرى السابقتين اصدر فوزى عطوى جديدة حققها وقدم لها ، نشرتها الشركة اللبنانية للكتاب ببيروت سنة ١٩٦٩ .

اختار الجاحظ موضوع البخل محور هذا الكتاب ، كما جعل « البخلاء » عنوانا ملفتا له . وقد حرص على ان يجمع فى هذا الكتاب اخبار البخلاء والمقتصدين . وان يقدم فى شكل ادبى بعض الصور والنماذج الحية المتحركة للبخلاء والمقتصدين . من خلال سلوكهم اليومى ، وعلاقاتهم الاقتصادية ، وافكارهم ، ومشاكلهم

الدائمة والمتصلة مع الناس بسبب ما يتصفون هم به ، ثم ملموحهم بالنسبة للثروة والادخار المفروض . اعتمد الجاحظ فى تصويره حالاتهم المختلفة على مشاهدته وتجاربه ومعايشته الواقعية للناس فى مجتمعه . موردا طرائف مشاهير البخلاء ، مقتدرا بملح المقتصدين من العلماء والأدباء . مثبتا ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرم والبخل ، وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم فى مآدب الضيافة .

يذكر الجاحظ فى مقدمة البخلاء ان ما حمله على تأليف هذا الكتاب ، هو الفائدة التى أداها كتاب له آخر عنوانه « تصنيف حيل لصوص النهار وتفصيل حيل سراق الليل » . ومن ثم كان حرصه الشديد منذ مقدمة الكتاب على أن يقصر همه فى ناحية واحدة من نواحى الأخلاق هى « البخل » ، فجعله موضوعا أدبيا خالصا ، وصنعة فنية جيدة . بمعنى انه يمكن القول بأن الجاحظ ابدع فى هذا الكتاب فنا من الفكاهة المغلفة بثوب قصصى . جاعلا كل شخصياته ، وصوره ، ومواقفه ، واحداثه ، فى خدمة الموضوع الواحد الذى استهدفه بادىء ذى بدء . ولعله بما اصطنعه من أساليب الفكاهة ؛ خفيفة الظل ، سريعة اللمح ، دقيقة الملاحظة ؛ استطاع ان ينقل شخصية البخيل المستقلة المقوتة التى وقف المجتمع العربى منها موقف الرفض التام ، الى شخصية تجمع بين الغفلة والسذاجة فى وجه من وجوهها ، والدهاء والحيلة فى وجه آخر . فى اطار من المداعبات والمحاورات الطريفة التى ألفها القارىء العربى من قلم الجاحظ .

هذا هو السر فى أن القارىء لا يمل حكايات البخل والبخلاء ، ولا يتخذ منهم موقفا معاديا ، وانما يجد متعة ولذة عقلية ووجدانية فى متابعتهم ومعرفة دوافعهم واهدافهم . اذ عرف الجاحظ كيف يبث فيهم من خفة روحه ، وكيف يجعل نكته على لسانهم ، ويبرئهم من التعدى الذميم على مال غيرهم ، مهما اشتد حرصهم على مالهم . لا ، بل انه يوضح من اقتصادهم احيانا ما يحمد وما يعتمد عليه فى تدبير المنزل . مع ملاحظة دقيقة جدا لأعمال البخلاء التى تخبر عن نفسيتهم وميولهم ، والتقاط لأدق حركاتهم . واصطناب الجاحظ لشخصياته فى الكتاب من طبقة واحدة متميزة يدل على وعيه الملقى ، وعلى رفضه هذا السلوك ، وعلى واقعيته ، وعلى فهمه لطبيعة الدور الذى يلعبه الكاتب او الأديب او الفنان فى حياة مجتمعه . من الزاوية التى يختارها . وبالشكل الفنى الذى يرتضيه . وباللغة الفنية التى يجيدها . حتى يكون تأثيره ، واشعاعه ، وبقاؤه .

ومن الملاحظ على الحياة الاجتماعية فى عصر الجاحظ ، انها صارت الى التعقد والتشابك ، منذ انتقلت الدولة الى الشرق ، واسرعت بتلك الحياة الى التعقد . فاصبحت متعددة الوجوه كثيرة المطالب . وفارقتها تلك البساطة التى كانت ما تزال غالبة على المجتمع الاسلامى من قبل . وبذلك صار المال — كما يقولون — ميزان الرجال . واصبح من الأمثلة الجارية فى مدينة كبغداد مثلا : « المال المال وما سواه محال » . وشهد هذا العصر نشوء طبقة

لا تملك الا هذا المال المال . هى طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد . وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب . وكـانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم . اذ كانت ثغر العراق ، والمركز التجارى الخطير الذى يصـل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية . وهـذه الطبقة — بطبيعتها — اكثر الناس تقديرا للمال ، واشدهم مغالاة بـه وحرصا عليه . مع اختلاف افرادها فى هذا .

وهذه الطبقة شغلت الجاحظ فى جانب من جوانب حياتها . فكان « البخلاء » رسمالها ، وتتبعا لأدق حركاتها . وهذا هو الذى فعله كتاب عالميون عالجوا هذا الموضوع قبل الجاحظ . وحتى لا نتهم بالغفلة والانغلاق وبأننا نطلق الأحكام هكذا كيفما اتفق ، ينبغى الاشارة الى بعض من تناولوا البخل والبخلاء فى كتاباتهم ، من الكتاب الأوربيين والعرب فى آن معا . وهو ما يعطى لبخلاء الجاحظ قيمة حقيقية ووضعا ملائما منطقيا ومقبولا .

يقـال ان المسرحية المفقودة التى كتبها المسرحى اليونانى « ميناندر Minandre» هى اول عمل فنى غربى يعالج موضوع البخل . ويروى قدماء الاغريق عن احد الملوك انه كان جشعا محبا للذهب ، فطلب من الاله ان يمنحه القدرة على تحويل كل شىء يلمسه الى ذهب . فتحققت رغبته . ولكنه فقد سـعادة الحيـاة . اذ تحول كل شىء الى ذلك المعـدن النفيس ، حتى المأكولات التى يتغذى بها اصبحت صلبة وقاسية . بمجرد لمسها

باصبعه . وكان ذلك من غضب الآلهة عليه . فمات حسرة وكمدا . كما أن « تيوفراست » الفيلسوف الاغريقى الذى ولد فى جزيرة لسيوس وعاش فيما بين عامى ٣٧٢ ق . م — ٢٨٧ ق م ، رصد الصفات التقليدية للبخيل . وتتبعه فى حالات نومه وذهابه الى السوق لشراء حاجياته .

وقد قام بترجمة النماذج البشرية التى اوردها تيوفراست « جان دى لابرويير » الذى يرجع اليه الفضل فى التعريف بتيوفراست . عاش فيما بين عامى ١٦٤٥ — ١٦٩٦ م . وهو كاتب اخلاقى ، يتميز اسلوبه بالايجاز والاقتصاد فى التعبير . خلف كتابا أسماه « الصور الأخلاقية » وصف فيه اخلاق عصره ، واتبعه بترجمة للنماذج التى كتبها تيوفراست . وهى تتناول وصفا لاذعا لثلاثين شخصية . يأخذ البخيل مكانه فيها .

وفى مسرحية « أريستوفان » Aristophans المسماه « بلوتوس » Plutos سنة ٣٨٨ ق . م ظهرت شخصية البخيل « كريميل » Cremyle . وهناك شخصية البخيل اكليون Euclion بطل مسرحية « القدر » أو « قدر الذهب » التى كتبها « بلوت Palute حوالى ١٩٥ ق . م . وغير ذلك من الأعمال المسرحية اليونانية الكثيرة ، التى حفلت بشخصية البخيل وبظاهرة البخل . وفى « الكوميديا الالهية » لدانتى يوجد البخلاء فى الجحيم القسم السابع ابيات ٦٤ — ٦٦ . ومسرحية « البخيل » لموليير ١٦٢٢ — ١٦٧٣ م معروفة ، حيث هاربا جون Harpagon بخيله الخالد .

وقد تأثر فيها بالشاعر الكوميدى اللاتينى Plaute (٢٥٠ — ١٨٤ ق . م) وكان يصف العادات والأخلاقيات الشعبية . ويقال ان موليير كرر شخصياته واستفاد منه فائدة كبيرة .

وانضم الأدب الانجليزى والاسبانى الى الأدبين الفرنسى والايطالى فى الاهتمام بالبخل وشخصية البخيل . هناك شخصية فولبون Volpone ١٦٠٦ بطل مسرحية بن جونسون التى حمل اسمه ، وامفيل Amville فى مسرحيه « ماساة الملحد » التى كتبها سيريل تورنير Cyril Tourneur ١٦١١ . ونقد العادات والتقاليد من خلال البخل والبخلاء يتجلى فى مسرحية « العاشقة الماهرة » Lope de Vega ١٨١٦ ، وفى مسرحية « وسيلة جديدة للوفاء بالديون القديمة » ١٦٢٥ للاسنجر Massinger وفى ١٦٣٠ ظهرت مسرحية « يهودى مالطة » التى كتبها كريستوفر مالرو حيث نجد فيها نموذجا جديدا للبخيل « باربلس » وكانه يمهد لأنموذج « شيلوك » لشكسبير فى مسرحية « تاجر البندقية » ١٦٩٥ .

يضاف الى هذا ، مسرحيات (سيدة مغامرة عاطفية) لصامويل شابيرو ١٦٢٥ — ١٧٠١ ، و « المحامية الحسناء » لبوازروبير Boisrobert و « البوربونيون العاشقون المناسون لأبنائهم » التى كتبها شيفاليه ١٦٧٤ . وفى خمس مسرحيات كتبها جولدونى Goldoni برزت شخصيات البخلاء بوضوح : « أوكتاف » فى مسرحية (الصديق الحقيقى) ١٧٥٠ ، و « بانتالون » فى مسرحيه (بخيل غيور) ١٧٥٣ و « دون أمبروجى » فى مسرحية

(بخيل) ١٧٥٦ ، و « تودیرو » فی مسرحية (تودیرو برونتولون) Soir Todero brontolon ١٧٦٢ ، و « كونت دو كاستلدورو » فی مسرحية L'avare fastueux ١٧٧٣ . وفی مطلع القرن التاسع عشر تعرضت القصة التاريخية للبخل . وذلك فی قصة « ايفنهو » ١٨١٨ لوالتر سكوت . ونجد فی الأدب الروسی معالجة البخل والبخلاء عند بوشكين ١٨٣٠ فی (الفارس البخيل) ، صورة بخيل جشع قاس لا يعرف الا جمع الثروة ، مستبيحا كل شیء فی هذا السبيل . وهو يتميز عن أقرانه من البخلاء بالسلطة والبطش . لكنه رغم ذلك يصاب بهزات نفسية ، واضطرابات شعورية غامضة .

ثم يأتی بلزاك فی قصته اوجينی جراندیه Eugeni Grandet ١٨٣٣ ليعرض للقارىء من خلال شخصية الأب جراندیه صورة نفسية للبخيل . وليصبح البخيل عنده شخصية يخطط سلوكها المكر والوعی . وعند جوجول فی (النفوس الميتة) ١٨٤٢ وديستويفسكی فی (أنشودة الميلاد) نفس الشخصية ، التی تتصف بالبخل والامساك والتقتير . وهی رذائل تضعهم مع « شيلوك » اليهودی فی صف واحد .

وفی ميدان السينما اخرجت السينما الايطالية افلاما عن الرذائل السبع التی ذكرها آباء الكنيسة . ويحتل البخل مكانه ، الى جانب الكسل والترف والغضب والشراهة والكبرياء والحسد . وهناك فيلم باسم (البخيل) يقوم فيه باولو ستوبا بدور شخص

بالغ الثراء ، لكنه يستغل الفقراء لبخله . ويفقد حافظة نقوده أثناء زيارته لأحد الأحياء الفقيرة ، فيعود الى زوجته بادى الغضب ، ويحاول أن ينتزع من رقبتها عقد اللؤلؤ الذى أهداه اليها فى ليلة زفافهما . وكظمت الزوجة غيظها وانتقمت منه بأن القت من النافذة مبلغ المائتى الف ليرة التى أتى بها أحد العمال الشرفاء دون أن يمسها ؛ رافضا أخذ مكافأته القانونية .

ولم يخل الأدب العربى القديم من هذه الشخصية . والشعر العربى حافل بما يشير الى نبذ الظاهرة لانتفائها مع ما عرف عن العرب من جود وكرم وسخاء . لكنها وجدت فى بعض الكتابات النثرية مثل المقامات ، وبعض النوادر ، والأخبار الواردة فى ألف ليلة وليلة ، والمؤلفات الجامعة مثل « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « الامتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى ، و « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، و « محاضرات الأدبـاء » للراغب الاصـفهانى ، و « المستطرف » للابشيهى . أما قبل الجاحظ ، فان ابن النديم فى (الفهرست) يشير الى من تناولوا موضوع البخل والبخلاء أمثال الأصمعى وأبى الحسن المدائنى وسهل بن هارون وعبد الرحمن الثـورى وأبى عبيدة . وفى كتاب الجـاحظ (المحاسن والمساوىء) أو المحاسن والأضداد حديث عن محاسن الكـرم والسخاء ، ثم يأتى بضدهما ويتكلم عن محاسن البخل والتقتير . ان الكتابات السابقة على كتاب (البخلاء) كانت كتابات اخبارية لا فنية فيها ، تعرض صـورا من الحياة الماضية دون الحياة

الحاضرة . والملاحظ أن موضوع البخل والبخلاء قد ورد فى هذه المؤلفات متفرقا فى فصول مختلفة .

ويأتى كتاب (البخلاء) من الناحية الفنية والموضوعية فى مقدمة هذه المؤلفات التى ذكرناها عربية وغربية . دراسة نفسية خصبة ، وصورة من أمتع صور التحليل النفسى الدقيق ، الذى يعتمد على دقة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، وعمق التجربة ، وسعة المعرفة . لون من ألوان التصوير النفسى الذى يعتمد على وصف دخائل النفس الانسانية ، وتتبع ما فيها من أمور خفية باطنه ، وطبائع مستورة متوارية . على أن قصد الجاحظ فى (البخلاء) لم يكن اقتناص وتجميع أخبار البخلاء وحدهم أو الحديث عن بخلهم خاصة ، بقدر ما كان مداعبتهم والضحك معهم أو عليهم ، أو البحث عن شخصيات تصلح أن تكون مواضع للفكاهة ، قبل أن تكون أمثلة بارزة للبخل . ولو كان هم الجاحظ فى الكتاب أن يقدم صورة تسجيلية لشخصية البخيل فقط ، لما التقينا فى كتابه بتلك الشخصيات الطريفة التى لا تصور الا السذاجة البالغة والطيبة الشديدة التى تبلغ حد الغفلة .

من هذه الشخصيات الطريفة ، هؤلاء الاخوة الثلاثة الذين يقومون بأعمال ان دلت على شىء فانما تدل على حد السذاجة والطيبة بلغ منتهاه : (واحد منهم كان يحج عن حمزة ويقول : استشهد قبل أن يحج . والآخر يضحى عن ابى بكر وعمر يقول اخطأ السنة فى ترك الضحية . وكان الآخر يفطر عن عائشة

أيام التشريق ويقول : غلطت ـــ رحمها الله ـــ فى صومها أيام العيد ، فمن صام عن أبيه وأمه ، فأنا أفطر عن عائشة) . وهكذا كـــان الجاحظ يتلقط الأحاديث بتذوق خـــاص ، ولا يثبت منها الا ما يتناسب مع ذوقه ، ومع طبيعة العقلية الدقيقة التى يتميز بها ، ومع موضوعه . وهو هنا أراد أن يطلعنا على ناحية من نواحى المجتمع العباسى ولا سيما مجتمع البصرة وخراســـان ، ويفصـــل لنا طرق الحياة والعيش فى تلك الفئـــة من الناس ، وأساليبها . ثم يمتد الى كثير من عادات العرب ومآكلهم وأمثالهم وأخبارهم ، والى بخل الروم ، وغش الفرس .

ولعل الجاحظ كان يبغى اصلاح تلك الفئة من الناس التى اتخذت البخل مذهبا تؤيده عن عقيدة أو عن تمويه . واشخاصـــه ـــ قبل هذا وذاك ـــ أحياء يتحركون ، ويتكلمون بلغة هى لغتهم ، ويكشفون لنا عن انفسهم . وهم عادة أصحاب جدل ومنطق ، يلجأون الى البراهين المختلفة والسفسطات التى تضـــحكنا من حيث تقنعهم أو تظهر أنها تقنعهم . ان الجدل والحوار سمة رئيسية فى نثر الجاحظ . ولا ننسى أنه يحكم عقله دائما . ولا ندهش حين تجاور الفكاهة المعقلانية ، وتلتقى السخرية مع المنطق ، والتهكم مع الجدل . وبمثل ما ارتقى بالفكاهة الى مستوى أدبى جعلها فيه موضع اهتمام المتأدبين ؛ فانه ارتقى بحواره ومناقشاته المنطقية الى مستوى المفكرين والفلاسفة . وقد صهر هذا جميعه فى بوتقة فنية نادرة . وما نظن ان النثر العربى قبـــل الجاحظ قد عرف شيئا من هذا . بل ان الجاحظ وحده هو الذى حلق به فى كـــل

الآفاق ، وسلك به جميع المسالك ، وجال به فى كل مجال ، مدفوعا بنزعته الفنية الخالصة .

اذا نظرنا فى صفحات (البخلاء) سنجد ان الجاحظ جعل له مقدمة افتتح بها الكتاب . حاول أن يضع فيها مجموعة من التساؤلات ، يعتبر الاجابة عنها — كل — دراسة نفسية واقتصادية لظاهرة البخل عند بعض الذين اختارهم الجاحظ كنماذج للدلالة على هذا النزوع النفسى والأخلاقى لدى البشر . وقد حاول عند صياغته لهذه التساؤلات ان يكشف عن وجهة نظر الأشحاء انفسهم ؛ درءا لما قد يتهمون به ، أو تأكيدا لما يتمسكون بما يرونه حقا . ثم هناك مجموعة اخرى من التساؤلات التى تبين وجهة النظر المضادة المخالفة لما يعتقدون . وقد تكون وجهة نظر عامة . راى الناس فيهم ، وفى سلوكهم . بل قل انها القضايا والموضوعات التى سوف يدور حولها الكتاب . وهو يشير الى مسائل وموضوعات سبق له ان تناولها وعالجها فى كتابه المسمى (كتاب المسائل) وانه لن يقف عندها فى (البخلاء) .

مما جاء فى هذه المقدمة قوله : (... وقلت : اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما ؛ فان للجد كدا يمنع من معاودته ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته وذكرت ملح الحرامى ، واحتجاج الكندى ، ورسالة

سهل بن هارون ، وكلام ابن غروان ، وخطبة الحارثى ، وكل ما حضرنى من أعاجيبهم واعاجيب غيرهم . ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، ولم حاموا الى المنع ونسبوه الى الحزم ، ولم نسبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا والاثرة جهلا ، ولم زهدوا فى الحمد وقل احتفالهم بالذم ، ولم استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء ، ولم احتجوا لتلف العيش على لينه ولمره على حلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطلبات فى رحالهم مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم ، ولم رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ، ولم عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ...) ثم يقول : (وقلت : فبين لى ما الشىء الذى خبل عقولهم وافسد اذهانهم وأغشى تلك الابصار ونقض تلك الاعتدال ؛ وما الشىء الذى له عاندوا الحق وخالفوا الأمم ، وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافى ، وما هذا الغباء الشديد الذى الى جنبه فطنة عجيبة ، وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح وادرك به الجليل الغامض) .

الجاحظ يتصور قارئا سبقت له قراءة كتابه الذى صنف فيه حيل لصوص النهار ، وفصل فيه حيل سراق الليل ، يطلب اليه ان يجيبه عن هذه التساؤلات المتعددة الاتجاهات حول (البخل) و (البخلاء) . ونظن ظنا أن قارئا على هذا النحو غير موجود . وان تصوره الجاحظ ووضع له الأسئلة التى تكشف عن وعيه

الشديد بما ينبغي أن تكون عليه مقدمة الكتاب .

ويكشف الجاحظ عن طريقة معالجته لموضوعه . وكيف انه سوف يركز في مواضع ، وقد يستطرد في مواضع اخرى . وان كنا نلاحظ أنه في هذه المقدمة يرى أن التركيز والتكثيف افضل من التفاصيل وذكر الجزئيات والوقوف عند مالا حاجة للقارىء به . هذا مع ادراكنا لأهمية الاستطراد بالنسبة للجاحظ في كتاباته الأخرى (فاما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر احاديث البخلاء ، فسأوجدك ذلك في قصصهم — ان شاء الله تعالى — مفرقا وفي احتجاجاتهم مجملا . فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي دون ما انتهى الي من اخبارهم على وجهها . وعلى أن الكتاب أيضا يسير اقصر ويصير العار فيه اقل) . اما الجديد في الكتاب كما يحدده الجاحظ : (ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء : تبين حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة ، او استفادة نادرة عجيبة . وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا ملت الجد) .

وللجاحظ موقفان من اصحاب نوادر البخل . انهم اذا كانوا من المشاهير ، فانه لا يسعى الى التشهير بهم . واذا كانوا من غير المشاهير ممن لا يعرف حكاياتهم احد ، فان ذكرهم لا يحط من قدرهم . وهو لا يستهدف ارضاء القارىء واشباع نهمه وحب الاستطلاع لديه ؛ على حساب ابطال حكاياته (وهذا كتاب لا اغرك منه ولا استر عنك عيبه ، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده ولا يجوز ان يوفى حقه كما ينبغي له . لأن ههنا احاديث متى اطلعنا منها

حرفا عرف أصحابها ، وان لم نسمهم ولم نرد ذلك بهم ، وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم ، منهم الصديق والولى والمستور والمتجمل ، وليس ينفى حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم ؛ فهذا باب يسقط البتة ويختل به الكتاب لا محالة ، وهو اكثرها بابا واعجبها منك موقعا . وأحاديث اخر ليس لها شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا على مقبدة اصحابها ، وليس يتوفر ابدا حسنها الا بان يعرف اهلها ، وحتى يصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها ، وفى قطع ما يشين ودس عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة وذهاب شطر النادرة » .

بعد المقدمة يثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون فى البخل ، الموجهة الى محمد بن زياد والى بنى عمه من آل زياد ، حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكتب ، وتقع فى ثمانى صفحات من القطع الكبير ، ثم ينتقل الى موضوع كتابه . ويبدأ باهل خراسان ، لاكثار الناس فيهم ، وخص بذلك اهل مرو بقدر ما خصوا به . مثل : ابن ابى كريمة ، والكندى ، ثم يقف عند قصة اهل البصرة من المسجديين ، وقصته زبيدة بن حميد ، وليلى الناعطية ، واحمد بن خلف ، وابى جعفر الطرسوسى ، والحزامى ، وخالد بن عبد الله القسرى ، ومحمد بن ابى المؤمل ، والثورى ، وابى سعيد المدائنى ، وغير ذلك من القصص المتعلقة بصنوف البخل ، وحيل البخلاء .

والجاحظ يؤكد أن الأحاديث الكثيرة التى كتبها حاول اضافتها الى اربابها . بيد ان بعض الأحاديث الأخرى لم يضفها الى اصحابها

، أما بالخوف منهم وأما بالاكرام لهم .. ولولا انك سألتنى هـذا الكتاب لما تكلفته ولما وضعت كلامى موضع الضيم والنقمة ، فان كانت لائمة أو عجز فعليك وان كان عذر فلى دونك) . ثم نراه بعدئذ يبرر لقارئه كيف انـه يترك اللفظ العامى أو الكـلام غير المعرب كما هو ؛ اعتقادا منه بان الاعراب قد لا يتسق مع الموقف ، أو الشخصية ، أو انه لا يستقيم مع محاولته تصوير الواقـع بحذافيره . وهو يذهب ـ فى هذا الكتاب ـ الى ان التقعـر او التعقيد اللغوى قد ينفض هذا الباب ويخرجه من حده ، ويدفـع القراء الى النفور منه . أما عندما ينحصر حديثه فى متعاقلى البخلاء الذين يحكمون عقلهم وفكرهم وفلسفتهم ؛ او الذين لهم دراية معمقة باللغة ؛ او اولئك العلماء الأشحاء ، فانه يتعمد أن يكون حديثه بكلام معرب . انه ينقل كلامهم هم دون تدخل منه . يقول : (وان وجدتم فى هذا الكتاب لحنا ؛ او كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا انا انما تركنا ذلك لأن الاعراب يبغض هـذا الباب ، ويخرجه من حده ؛ الا أن احكى كلاما من كـلام متعاقلى البخلاء واشحاء العلماء ، كسهل بن هارون ، واشباهه) .

وفى معرض تناوله لبعض الشخصيات التى تتسم بالبخل ؛ وقبل الاقدام على تصوير « موقف معاصر » لها يجسد هذه السمة الأخلاقية والسلوكية ؛ نراه يمهد للتعريف بهذه الشخصية من هذه الزاوية بذاتها . وكأنما ليوحى ببعض الأبعاد النفسـية ؛ حتى لا يفاجأ القارىء بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل .

فنى بداية حديثه عن « زبيدة بن حميد » الصيرفى ، يذكر لنا انه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا ، لكنه بعد ستة اشهر دفع ما عليه للبقال ناقصا (درهمين وثلاث حبات شعير) فاغتاظ البقال ، وذكره بانه غنى يملك مائة الف دينار ، ولا يرد الحق لصاحبه كاملا بعد نصف سنة . وانه فعل معروفا فيه ، اذ سدد عنه فى غيبته مبلغا كان مطلوبا . ويكون هـذا جزاؤه بعد ستة اشهر . فقال زبيدة : (يا مجنون ! اسلفتنى فى الصيف ، فقضيتك فى الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية ندية أرزن من اربع شعيرات يابسة صيفية ، وما اشك ان معك فضلا » .

هذا جانب من جوانب الشخصية فى علاقاتها بالناس من حولها . وربما يكون — من ناحية اخرى — بعدا فكريا ننطلق على اساسه الشخصية فى تعاملها . ثم يعطى ملمحا آخر يكشف عن الطريقة التى يتخذها فى معاملته لغلمانه . انه يضربهم لاتهامهم بانهم ياكلون دواء مخصصا للهضم . ويذهب صديق له الى رئيسهم ليسال عن حقيقة سبب الضرب ، يفاجأ اذ يراه يتلوى من الجوع ، وانه لا حاجة به الى ما يهضم ، لأنه لم يطعم ولم ياكل (لا نحتاج الى الجوارشن ، ونحن الذين نسمع بالشبع سماعا من افواه الناس — ما نصنع بالجوارشن) .

أفاد الكاتب عندما قدم لنا « الشخصية » المحورية من خلال الآخرين . والواقع ان حديثه كله يدور حول شخصية واحدة هى

شخصية زبيدة بن حميد السيرفى ؛ لكنه أضاف اليه شخصية البقال ثم شخصية الصديق « ابو الاصبغ بن ربعى » ، وشخصية رئيس الغلمان ؛ ليضفى على شخصيته الرئيسية أبعادا تخدم الفكرة الوحيدة والموضوع الأصلى . وكيف انه يقتر فى الطعام ؛ ويفضل الجوع على الأكل . ولا يرد الدين الا متأخرا ومنقوصا . بعدئذ ينتقل الى موقف اكثر سخرية ومرارة : (وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقا له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات ، وعلم ان ذلك من هموات السكر ، فمضى من ساعته الى منزله ، فحمله برنكانا لامرأته ، فلما اصبح سأل عن القميص وتفقده فقيل له : انك قد كسوته فلانا . فبعث اليه . ثم اقبل عليه . فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقة لا يجوز ؟ وبعد فانى أكره الا يكون لى حمد ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فرده على حتى اهبه لك صاحيا عن طيب نفس ، فانى اكره أن يذهب شيء من مالى باطلا . فلما رآه صحا اقبل عليه فقال : ياهناه ! ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : انى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم اضع جنبى الى الأرض حتى جيبته لامراتى . وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم . فان اردت بعد هذا كله أن تاخذه فخذه . فقال : نعم آخذه ، لأنه يصلح لامراتى كما يصلح لامرأتك . قال : فانه عند الصباغ . قال : فهاته . قال : ليس انا اسلمته اليه . فلما علم انه قد وقع ، قال : بابى وامى رسول الله — ﷺ — حيث يقول : جمع الشر كله فى بيت ، واغلق

عليه ، فكان مفتاحه السكر ! .

هنا حادثة ، وموقف ، وحوار . بل ان شئت قلت : بداية ووسط ونهاية ، أو لحظة تنوير . شخصيتان تتصارعان — فنيا — والكاتب لا دخل له ولا علاقة . يقف بعيدا عن الحدث ، ويصوره . والحوار يدل على كل شخصية : أفكارها ونوازعها وطموحها ومشكلتها . والشخصيتان فى مستوى واحد . لأن الصراع اذا كان بين طرفين غير متكافئين ، لا يثير ولا يشوق ، ولا يدفع الى التتبع والاستشراف . لكل من الشخصيتين قدرة على التصرف ، والتحايل ، والتخلص من المأزق . فضلا عن قدرة كل منهما على الاقناع . كل طرف يريد القميص له . ويسعى بالجدل والمناقشة والتفكير من أجل تحقيق هذا الهدف .

لم يلجأ الكاتب الى الاستطراد ، والشرح ، والتفصيل . كما أنه لم يسع الى النصح والارشاد والخطابية . لم يحتل بالجزئيات والتفصيلات . ركز أضواءه القوية الباهرة فى « الموقف » الواحد ، وفى الصراع المتكافىء الأطراف ، وفى محاولة الكشف عن « الداخل » لكل شخصية . والموقف لا يحتمل شخصيات متنوعة . ولا يقتضى تدخلا من المؤلف ؛ لأنه وعد بعدم التدخل بالتعليق أو بالرفض أو بالانحياز . وان كنا نلاحظ انه فى النهاية وعندما ينس زبيدة بن حميد الصيرفى نسب ما اسماه بالشر الى السكر . الشر فى نظره هو الكرم ؛ لأن البخل هو الخير الوحيد المأمول

عند البخلاء . واذا كانت ثمة نقيصة فى سلوكه فانما تكمن فى اقدامه هذه المرة على اكرام نديمه باهدائه ذاك القميص .

ونزعم أن هذا الموقف بهذه الصورة لم يجسد هكذا كيفما اتفق ؛ وانما مهدت له اللمحتان اللتان سبقت الاشارة اليهما .

وثمة قصة اخرى بطلاها « أبو مازن » و « جبل الغمر » يقدمها الجاحظ على هذا النحو :

وكان جبل خرج ليلا من موضع كان فيه ، فخاف الطائف . ولم يأمن المستقفى . فقال : لو دققت الباب على ابى مازن ، فبت عنده فى أدنى بيت أو فى دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنتى شيئا ، حتى اذا انصدع عمود الصبح خرجت فى اوائل المدلجين .

فدق عليه الباب دق واثق ودق مدل ودق من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستقفى ، وفى قلبه عز الكفاية والثقة باستقاط المؤنة . فلم يشك ابو مازن انه دق صاحب هدية ، فنزل سريعا . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت . فلما رآه جبل

- البدوات : ما يبدو له من الرجوع بعد أن يصحو من السكر .
- برنكانا : نوع من الثياب .
- ياهناه : يا رجل .
- جيبته : جعلت له جيبا . والجيب ما يفتح على الصدر .
- مقاديم القميص : ما يبدو منه اولا .

واجما لا يحير كلمة ، قـــال له : انى خفت معرة الطائف وعجلة المستقفى فملت اليك لأبيت عندك . فتساكر أبو مازن ، واراه أن وجومه انما كان بسبب السكر . فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، انا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن فى أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست احتاج الى سطح فاغم عيالك بالحر ، ولست احتاج الى لحاف فاكلفك أن تؤثرنى بالدثار . وانا كما ترى نمل من الشراب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس رحلا ، رحلا ، وانما اريد ان تدعنى أغنى فى دهليزك اغفاءة واحدة ، ثم اقوم فى أوائل المبكرين . قال ابو مازن — وارخى عينيه ونكيه ولسانه ، ثم قال : — سكران ، والله ، انا سكران ، لا والله ما أعقل أين انا ، والله ان افهم ما تقول .

ثم اغلق الباب فى وجهه ، ودخل لا يشك ان عذره قد وضح ، وانه قد الطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة) .

- الطائف هـو الذى يطوف بالمدينة ليلا بأمر الحاكم ليتنقد أحوالها .
- المستقفى هو الذى يقفو الأثر للسلب .
- المدلجين السائرين آخر الليل.
- دق مدل أى دق وانق من منزلته عند من يدق عليه .
- تساكر : تظاهر بالسكر .
- جوارحه : اعضاءه .
- ان افهم : ما افهم .
- الطف النظر : أنعم النظر .

فى هذه الصورة شخصيتان . وحوار . ووجهتا نظر . وبداية ونهاية . بل هنا يوجد تصوير للمشاعر الداخلية لشخصية جبل الغمر الذى يخشى العسكر واللصوص ؛ والذى لا يبحث الا عن مكان يأوى اليه حتى الصباح . ثم هناك تصوير لرد الفعل وانعكاساته على الشخصية الأخرى « ابو مازن » : ارخى عينيه ، ومكبه ، ولسانه . والصورة على الرغم من كونها تبعث على الضحك فانها تكشف عن سذاجة وبلاهة . لكنها تدل على حسن حيله البخيل فى الهرب من المواقف المأزومة التى قد يقع فيها ، ويجد نفسه مطالبا بالتصرف والتخلص فى آن معا .

ولهذا الموقف اطار مكانى وزمانى ، حددهما الجاحظ فى البداية . بمعنى وحدة مكان ووحدة زمان . بمثل وحدة الشخصية ، والحدث . واذا كان ثمة مكان خاص وزمان خاص يرتبطان بالموقف الواحد ؛ فاننا لا نفصل بينهما وبين الاطار الجغرافى العام ممثلا فى مدينة البصرة او بغداد او خراسان . وكذا لا يمكن الفصل بين الزمن الخاص «وقت الليل» والاطار الزمنى العام مجسدا فى عصر الجاحظ . ثم ان تصوير البخيل وهو يرخى عينيه ومكبه ولسانه ؛ لون من الوان الاضحاك التى يألفها القارىء فى كل صور الجاحظ فى هذا الكتاب اعتمادا على التصوير الكاريكاتيرى للشخصية . الشكل الخارجى المضحك . فضلا عن المبالغة فى اصطناع السكر كحيلة من حيل البخلاء سبق لنا أن اشرنا اليها .

وهذه صورة ساخرة اخرى من الصورة التى حرص فيها

الجاحظ على تحريك الشخصية تحريكا مضحكا نابضـــا بالحركة والحياة ، وهو يسلط الضوء على « الأسوارى » وهو ينقض فجأة وبسرعة على الأكل : « وكان اذا اكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر وانبهر ، واربد وجهه ، وغصب ، ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلمـــا رأيت ما يعتريه ومـــا يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له الا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلا ، ولم يجارنى قط وانا آكل تمرا الا استقله سفا ، وحساه حسوا ، وزدا به زودا ، ولا وجده كنيزا الا تناول القطعة كجحجه النور ، ثم يأخذ بحضنيها ، ويقلها من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضـــا ، ورفعا وخفضا ، حتى يأتى عليها جميعا ، ثم لا يقع غضـــه الا على الأنصاف والا ثلاث ولم يفصل ثمرة قط من ثمرة ، وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعا ، ولا نمى عنه قشرا ، ولا فتشـــه مخافة السـوس والدود . ثم

- سدر : تحير واضطرب .
- غصب : جف ريقه من شدة الجهد .
- الباقلى : الفول ، اى لرخص هذه الأشياء .
- حسوا : كأنه يشربه .
- زودا : اطاره عن المائدة .
- حضنيها : جانبيها .
- غضه : اعراضه .
- الانلاث : الثمرات التالفة .
- التفاريق : اى يأكل بالجملة

ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثار ، وشحشان صاحب طائلة . وكأنه عاشق مفتام أو جائع مقرور ! .

ويصور الجاحظ « على الاسوارى » فى موقف آخر اكثر سخرية . مما يثير الضحك عليه . اذ ينقض مجأه على « عيسى بن سليمان » يسلب من يده اللقمه : « هذا على الأسوارى . اكل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت مدامهم سمكه عجيبة . فائقه السمن . مجلط بطنها جلطه . فاذا هو يكتنز شحما ! وقد كان غص بلقمة وهو المستسقى . فغرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل انسان منهم بلقمه غرفه . وكان عيسى بسخب الاكله . ويختار منهم كل منهوم منه . ومفنون به . فلما خاف على الأسوارى الاخفاق . واشفق من الموت — وكان اقربهم اليه عيسى — استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى . وانكدار العقاب من غير أن يكون اكل عنده قبل مرته . فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها اليه ، وشحا فاها ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة ؟ قال : لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك . ولكنا اهوينا ايدينا معا ، فوقعت يدى فى مقدم الشحمة ، ووقعت يده فى

- شحشان : شجاع .
- صاحب طائلة : ثار .
- مقرور : من القر وهو البرد ، وهذا يثير الجوع .
- مستسق : طالب ان يسقى لازالة الغصة .
- الاكلة : الآكلين .
- انكدار : انقضاض .
- شحالها فاه : فتحه .

مؤخر الشحمة معا . والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معا ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير مبينة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة الى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر » .

الذي يدعو الى الدهشة أن الجاحظ حاول ان يجعل الشخصية تستند الى محاولة جعل سلوكها منطقيا ، مستندا الى تبرير ما حدث بشكل عقلاني ؛ والانتهاء الى- اتصال الشيء بجنسه والجوهر بالجوهر . وهذه الصورة نجد لها نظائر كثيرة في البخلاء ؛ حيث يتكرر الطفيليون . وحيث يجسد الجاحظ حركاتهم واقوالهم والموائد التي يسعون اليها .

وتحتل حكايات اهل خراسان مساحة طيبة من صفحات « البخلاء » . وفنون البخل عندهم متنوعة . ومحاولاتهم التخلص من المواقف الحرجة متعددة . وهي في الأغلب مستندة الى منطق عقلاني . والى مبررات هادئة قد تكون مقنعة . ومن ذلك ما يحكيه الجاحظ عن أحد شيوخ أهل خراسان : « فبينا هو يوما من أيامه ياكل في بعض المواضع ، اذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم قال : هلم عافاك الله . فلما نظر الى الرجل قد انثنى راجعا ، يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر ، قال له : مكانك ، فان العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فأقبل

● يطفر : يثب في ارتفاع .

عليه الخراســـانى وقال : تريد ماذا ؟ قال : اريد ان اتغدى . قال : ولم ذاك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن اباح لك مالى ؟ قال الرجل : او ليس قد دعوتنى ؟ قال : ويلك ، لو ظننت انك هكذا احمق ما رددت عليك الســـلام . الآيين فيما نحن فيه ان نكون ، اذا كنت انا الجالس وانت المار ، ان تبدأ انت فتسلم ، فاقول انا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام . فان كنت لا آكلا شيئا سكت انا وسكت انت . ومضيت انت وقعدت انا عـــلى حالى . وان كنت آكل فها هنا آيين آخر ، وهو ان ابدأ انا فاقول : هلم . وتجيب انت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام . فأما كلام بفعال وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف ، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا . قال : فورد على الرجل شيء لم يكن فى حسبانه . فشهر بذلك فى تلك الناحية ، وقيل له : قد اعفينا من السلام ومن تكلف الرد . قال : ما بى الى ذلك حاجة ، انما هو ان اعفى انا نفسى من « هلم » ، وقد استقام الأمر) .

هنا تبدو بساطة الجاحظ وسهولة التعبير عنده . بل والاستناد الى الاقناع بالمنطق . والحوار يدور بين الشخصيتين فى يسر . وهما على طرفى نقيض . والبخيل الخراسانى لا يخسر الجولـــة

● الآيين : القانون او العادة ، معرب .
● يخرج علينا فضلا كثيرا : يغدق علينا . والمعنى أن هذا الذى رسمته لك يوفر لنا ما كنت ستأكله .
● هلم : الدعوة الى الطعام بقول : هلم .

ابدا . وانما هو يدافع عن موقفه بقوة ، حتى وان شهر به فى الناحية . وهو يزن كل شىء وكل امر . فالكلام ينبغى ان يكافأ بكلام . والصدق بصدق . والكذب بكذب . وان مدحه « شاعر » بقصيدة مطولة حافلة بالصفات والنعوت التى لا حصر لها . وعده بعشرات الآلاف من الدراهم والدنانير . لكنه لا يهبه شيئا واقعيا ماديا . لأن « الشاعر » مدحه بكلام ؛ ومن ثم فانه يجامله بكلام لا طائل من ورائه ، ولا عائد له . البخيل دائما هو الرابح وهو المقتصد ، وهو الذى يضع القاعدة التى ترضيه ، والمنطق الذى لا يقنع غيره .

وحول فلسفة البخل قيل لأحدهم مرة : (قد رضيت بأن يقال : عبد الله بخيل ؟ قال : لا اعدمنى الله هذا الاسم . قلت : وكيف ؟ قال : لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فسلم الى المال ، وادعنى باى اسم شئت . قلت : ولا يقال أيضا فلان سخى الا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، واسم البخل يجمع المال والذم . فقد اخترت اخسهما واوضعهما . قال : وبينهما فرق . قلت : فهاته . قال : فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه ، وفى قولهم سخى اخبار عن خروج المال من ملكه . واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد . والمال زاهر نافع مكرم لأهله معز ، والحمد ريح وسخريه ، واستماعك له ضعف وفسولة وما اقل غناء الحمد ـ والله ـ عنه ، اذا جاع بطنه ، وعرى جلده ، وضاع عياله ، وشمت به من كان يحسده) .

ولعبد الرحمن الثورى [وهو سرى من سراة البصرة ، يملك خمسمائة جريب من أكرم الأرض ؛ وكان يصطنع التجارة ؛ وكان ينزل بغداد عند مسجد ابن رغبان ، وقد جرد فى الانتصار للبخل والدفاع عنه كتابا ؛ وكان رجلا مناديا يروى الآثار المختلفة ، مثقفا بثقافة عصره] مجموعة كاملة من النصائح والوصايا فى البخل دعمها بشواهد من حياته هو ، يقول فيها :

(أول الاصلاح — وهو من الواجب — خصف النعل ، واستجادة الطراق ، وتشحيمها فى كل الأيام ، وعقد ذؤابة الشراك من زى النساك ، لكيلا يطأ عليه انسان فيقطعه . ومن الاصلاح الواجب قلب خرقة القلنسوة اذا اتسخت ، وغسلها من اتساخها بعد القلب ، واجعلها حبرة فانها مما له مرجوع . ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبة فى الشتاء . واتخاذ الشاة اللبون اذا كان عندك حمار . واتخاذ الحمار الجامع خير من غله الف دينار ، لأنه لرحلك ، ربه تدرك البعيد من حوائجك ، وعليه تطحن فتستفضل ما يربحه عليك الطحان . وتنقل عليه حوائجه وحوائجك ، حتى الحطب ، وتستقى عليه الماء . وهذه كلها مؤن اذا اجتمعت كانت فى السنة مالا كثيرا .

ثم قال اشهد أن الرفق يمن ، وان الخرق شؤم . اشتريت ملاءة مذارية فلبستها — ما شاء الله — رداء وملحفة . ثم احتجت الى طيلسان فقطعتها — يعلم الله — فلبسته ما شاء الله . ثم احتجت الى جبة فجعلته — يعلم الله — ظهارة جبة محشوة ،

فلبسنها ما شـــاء الله . ثم اخرجت ما كان فيها من الصحيح . فجعلته مخاد ، وجعلت قطنها للقناديل . ثم جعلت مادون خرق المخاد للقلانس ، ثم عمدت الى اصح ما بقى فبعته من اصحاب الدينيات والصلاحيات . وجعلت مالا رقعة له مسحاة لى ولاجارية . اذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء . وجعلت السباتلات وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف . مسمائم لرءوس القوارير ! .

اما وصايا ابو عبد الرحمن النورى لانه فانها تقع فى سبع صفحات من القطع الكبير . لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة الا وقف عندها ، ولا تاقه الاشياء الا وجد له نفعا ممتدا . وثمة قدرة على الاحصاء والتوليد ، واناة فى المتابعة وفى الاستشهاد بما يدعم رايه . والواقع انه هنا كان شديد الحرص على ان يوفر لشخرصه من المعلومات والمعارف ما يعاون على الاقناع . وهو يراعى الظروف التى احاطت وتحيط بكل شخصـــية . اذ ان الشخصيات التى اختارها تحترف عددا من الحرف والمهن المختلفة . منهم كبـــار الملاك الذين يعتمدون على ايجار دورهم موردا للثروة كالكندى . ومنهم رجال المال والتجارة كالنورى والمدائنى وزبيدة بن حميد الذى كان يعمل بالصـــيرفة وتجارة الرقيق . ومنهم من احترف الاسوصية والكدية والقرصنة ، كخالويه (خالد بن يزيد المكدى) . وربما يكون معظم بخلاء الجاحظ من المثقفين او « المتعاقلين » على حد تسمية الجاحظ لهم . ومنهم من كان له شان فى حركـــة الفكر والادب فى عصر الجاحظ مثل سـهل بن هارون ، وثمامة بن اشرس . ومنهم من كان يشـــتغل بالتعليم كابى عيينة . او من

يقرض الشـــعر كالحرامى ، أو من يسرد القصص كابى كعب الصوفى ، عبد الأعلى القاص . وهناك القضاة والأطباء والولاة والفقهاء . وقد كان الجاحظ يورد على السنة هؤلاء تلك المصطلحات والتعابير التى يستخدمونها فى مهنهم .

ومن اللافت للنظر أن كثيرا من النماذج التى قدمها الجاحظ تكشف عن البخل فى الطعام ، وتفننها فيه ، وأنواعه ، وألوانه . كان أبو يعقوب الخثعان يقول : (ما فاتنى اللحم منذ ملكت المال . وكان اذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم ، واشترى بصلا بدانق ، وباذنجانا بدانق ، وقرعة بدانق ، فاذا كان أيام الجزر فجزرا بدانق ، وطبخه كله سكباجا . فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشىء من رأس القدر ، وما ينقطع فى القدر البصل والباذنجار والجزر والترع والشحم واللحم . فاذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم فى المرق . فاذا كان يوم الأحد أكلوا البصل . فاذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر . فاذا كان يوم الثلاثاء أكلوا الترع . فاذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان . فاذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم . فلهذا كان يقول : ما فاتنى اللحم منذ ملكت المال) .

يستتبع هذا حديث مطول عن الأكول : حركاته ، سماته ، أوصافه ، حكاياته . وهنا يقف الجاحظ عند سمات بعينها يحاول تجسيدها والتضخيم فيها . ويحدد الألفاظ المتداولة بين البخلاء فى وصف الذين يشاركونهم الأكل . فهناك « النشال » الذى يتناول من القدر ، ويأكل قبل النضج ، وقبل أن تنزل القدر ، ويتمام

القوم . و « اللكام » الذى فى فمه اللقمة ، ثم يلكمها بأخرى قبل اجادة مضغها أو ابتلاعها . و « المصاص » الذى يمص جوف قصبة العظم ، بعد أن استخرج مخه ، واستأثر به دون اصحابه . و « النهاش » الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع . و « القطاع » الذى يعض على اللقمة ، فيقطع نصفها ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ . و « المحلقم » الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه . الى غير ذلك من الصفات والمصطلحات .

واستكمالا للصورة اضاف الجاحظ تحت ما اسماه (أطراف من علم العرب فى الطعام) حديثا عن أنواع الطعام المحبذة ، وتلك المذمومة ، وما قد يصحب الدعوة الى الطعام والمأدب من آداب . وهو يبرر ذلك بقوله : (احتجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلا كبيرا ، الى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم . وما يتمادحون به وما يتهاجون به شيء ، وان قل ، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب . ولولا ان يخرج من مقدار شهوة الناس . لكان الخبر عن العرب والأعراب اكثر من جميع هذا الكتاب) . فمن طعام العرب « الوكيرة » وهو طعام البناء . كان الرجل يطعم من يبنى له . واذا فرغ من بنائه تبرك باطعام أصحابه ودعائهم . ولذلك قال قائلهم :

خير طعام شـــهد العشيرة .. العرس والاعذار والوكيرة .

والعرس معروف . اما الاعذار فانه طعام الختان . يقال :

صبي معذور وصبي معذر جميعا . وقال بعض اصحاب النبي ﷺ ، وهو يريد تقاربهم في الأسنان : « كنا اعذار عام واحد » . وهناك « الخرس » ، وهو الطعام الذي يتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء . وزعموا أن اصل ذلك مأخوذ من الخرسة ، وهي طعام النفساء .

ويبقى ان نقف عند قصتين لبخيلين شهيرين احتفت بهما صفحات البخلاء . الأولى هي قصة ابي سعيد المدائني ، الذي كان اماما في البخل بالبصرة ، وكان ممن يتعاملون بالربا . فضلا عن انه كان شديد العقل ، شديد المعارضة ، بعيد الروية ، حاضر الحجة . قال له احمد المكي مرة : (والله انك لكثير المال ، وانك لتعرف ما نجهل وان قميصك وسخ ، فلم لا تأمر بغسله ؟ . قال : فلو كنت قليل المال واجهل ما تعرف ، كيف كان قولك لي ؟ اني قد فكرت في هذا منذ ستة اشهر ، فما وضح لي بعد وجه الأمر فيه . اقول مرة : الثوب اذا اتسخ أكل البدن ، كما يأكل الصدأ الحديد . والثوب اذا تراكمه العرق ، وجفه وتراكم عليه الوسخ ولبد ، أكل السلك واحرق الغزل . هذا مع نتن ريحه وقبح منظره . وبعد ، فاتي رجل آتي ابواب الغرماء ، وغلمان غرمائي جبلبرة ، فما ظنك بهم اذا رأوني في اطمار وسخه واسمال درنة وحال حداد ؟ فجبهوا مرة ، وحجبوا مرة . فيرجع ذلك علينا بمضرة من اصلاح المال ، وان يفني عنه كل ما اعان على حبسه ، مع ما يدخل من الغبط ، ويلقى من كان كذلك من المكروه .

فاذا اجتمعت هذه الخواطر ، هممت بغسلها . فاذا هممت به عارضنى معارض يوهمنى انه اتانى من جهة الحزم ومن قبل العقل ، فقال : اول ذلك الغرم الذى يكون فى الماء والصابون . والجارية اذا ازدادت غناء ، ازدادت اكلا . والصابون نورة ، والنورة تاكل الثوب وتبلى الخز ، ولا يزال الثوب على خطر حتى يسلم الى القصر والدق . ثم اذا القى على الرسن ، فهو بعرض الجنبة والنترة والعلق . ولابد من الجلوس يومئذ فى البيت . ومتى جلست فى البيت فتحوا علينا ابوبا من النفقة وأبوابا من الشهوات . والثياب لابد لها من دق . فان دققناها فى المنزل قطعناها ، وان نحن اسلمناها الى القصار فغرم على غرم ، وعلى انه ربما انزل بها من المكروه ما هو اشد . وما جلست فى المنزل قط الا ارجف بى الغرماء ، وادعوا على الأمراض والأحداث ، وفى ذلك لهم فساد والتواء وطمع لم يكن عندهم . فاذا انا لبستها ، وقد ابيضت وحسنت وجفت وطابت ، تبينت عند ذلك وسخ جسدى وكثرة شعرى ، وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ، فنرقته ، فاستبان لى ما لم يكن يستبين ، واكتثت لما لم اكن اكترث له . فيصير ذلك مدعاة الى دخول الحمام . فان دخلته فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولى امراة جميلة شابة ، اذا رانتى قد اطليت وغسلت راسى ، وبيضت ثوبى ، عارضتنى بالتطيب وبلبس احسن ثيابها ، وتعرضت لى ، وانا فحل ، والفحل اذا هاج لم يرد راسه شىء . فاذا اردت مواقعتها ، ورات حرصى نثرت على الحوائج

نثرا . ثم احتجنا الى تسخين الماء . واشد من هذا كله ان تعلق ؛ فحتاج الى ظئر . فنقع فى ما لا غاية له) ...

ان هـذا المنطق الذى يحمل على الاعتقاد بمعقولية دنوع الأشحاء ، الذى يجسده ابو سعيد المدائنى ، يؤكد قدرة الجاحظ على الولد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج . بل انه بدل دلاله واضحه على ان الجاحظ عايش البخلاء طويلا ؛ وعرف الدوافع الى بخلهم ، وادرك الأبعاد النفسية لذلك . وانا لنعجب اذ نرى ابا سعيد المدائنى يقدم الحجة تلو الحجة ، والتبرير تلو التبرير . وفى اعتقادنا ان المسألة لا تقف عند حد ثقافة الجاحظ ، ومعرفته باللغه ، والمنطق ، والفلسفة ، والجدل . انها ابعد من ذلك . خبرة معمقة ببواطن النفس البشرية ، وبما يعتمل فى داخلها من صراعات . وبان السلوك الذى يسلكه الانسان ليس الا بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات ، وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه . ان ابا سعيد المدائنى يحتج لمذهبه فى البخل او فى الاقتصاد والنفقة . وقدرته فى الاحتجاج ليست وليدة

● الظئر : بهمزة ساكنة ويجوز تخفيفها الناقة تعطف على ولد غيرها ، ومنه قيل للمراة الأجنبية تحضـن ولد غيرها ظئر وللرجل الحاضن ظئر أيضا والجمع اظآر مثل حمل واحمال وربما جمعت المرأة على ظئار بكسر الظاء وضـمها وظارت اظار بفتحتين اتخذت ظئرا .

● تعلق : تحبل ، تتشبث به .

موقف واحد ؛ وانما هى خلاصة تاريخ حياة كاملة ، وممارسة طويلة مدروسة ان صح التعبير .

والجاحظ يورد حجج البخلاء مذاهب مختلفة . فهو يسوقها مرة مساق الجد ، والسخرية تترقرق فى خلالها . ويعرضها مرة اخرى فى معرض السخرية الصريحة . لكنه حريص على ان يحكى الحركات النفسية حكاية دقيقة ، ويعرض ما تورده على خواطرهم اسبابهم المختلفة التى تحكمهم من بواطنهم عرضا رائعا . ولا يترك الجاحظ شخصية ابى سعيد المدائنى قبل ان يحكى عنه ما لا يمكن ان ينسى :

(وكان ابو سعيد ينهى خادمه ان تخرج الكساحة من الدار . وامرها ان تجمعها من دور السكان ، وتلقيها على كساحتهم . فاذا كان بعد الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل ، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ، ثم فتشت واحدا واحدا ، فان اصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة واودينار او قطعة حلى ، فسبيل ذلك معروف . واما ما وجد فيه من الصوف ، فكان وجهه ان يباع اذا اجتمع من أصحاب البراذع . وكذلك قطع الاكسية ، وما كان من خرق الثياب ، فمن أصحاب السينيات والصلاحيات وما كان من قشور الرمان ، فمن الصباغين والدباغين .

وما كان من القوارير ، فمن أصحاب الزجاج . وما كان من نوى التمر ، فمن أصحاب الخشوف . وما كان من نوى الخوخ .

فمن أصحاب الفرس . وما كان من المسامير وقطع الحديد ؛ فللحدادين . وما كان من القراطيس ؛ فللطراز . وما كان من الصحف فلرءوس الجرار . وما كان من قطع الخشب ؛ فللأكارين . وما كان من قطع العظام ؛ فللوقود . وما كان من قطع الخزف ؛ فللدنانير الجدد ، وما كان من الشكنج فهو مجموع للبناء ؛ ثم يحرك و ثار وخلل ، حتى يجتمع تماشه ؛ ثم يعزل للتنور . وما كان من قطع القار ، بيع من القيار . فاذا بقى التراب خالصا ؛ واراد ان يشرب منه اللبن للبيع وللحاجة اليه ؛ لم يتكلف الماء . ولكن يأمر جميع من فى الدار أن لا يتوضؤا ولا يغتسلوا الا عليه . فاذا ابتل ضربه لبنا) .

اما البخيل الثانى الذى احتفت به صفحات « البخلاء » فانه الكندى . الذى مدحه كل البخلاء ، ورأوا انه كان حكيما ؛ حاضر الحجة ؛ ناصع الجيب ، دائم الطريقة . وهو صاحب اقوال فى مدح البخل وذم الكرم . فمنع المال وتحصينه خوفا من الغيلة ، وحفظه اشفاقا من الذلة ، افضل عنده من جهل فضل الغنى ، وابتذال النعمة ، واهانة النفس بكرم الغير . انما المال لمن حفظه ، وانما الغنى لمن تمسك به . ولحفظ المال بنيت الحيطان ، وعلقت الأبواب واتخذت الصناديق ، وعملت الأقفال ، وتعلم الحساب والكتاب .

● اشكنج : قطع الطوب والآجر المكسر . فارسية أصلها اشنكنك .

وللكندى قصة مشهورة وقف الجاحظ عندها طويلا ، واعجب بها استاذنا الدكتور طه حسين ، واعتبرها وصفا للخصومة التى قد تحدث بين الملاك والمستاجرين ، واستشهد بها فى كتابه (من حديث الشعر والنثر) على ان الجاحظ كان دقيق التصوير لحياة الانسان ، ولحياة البصرة وبغداد فى عصره .

قال الجاحظ : حدثنى عمرو بن نهيوى قال : (كان الكندى لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : ان فى الدار امراة بها حمل ، والوحمى ربما اسقطت من ريح القدر الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة او لعقة ، فان النفس يردها اليسير . فان لم تفعل ذلك بعد اعلامى اياك ، فكفارتك ان اسقطت غرة : عبد او امة ، الزمت ذلك نفسك ام ابيت .

قان فكان يوافى الى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه ، وان كان اكثرهم يفطن ويتغافل . وكان الكندى يقول لعياله : انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع . انما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم الوان .

قال : بكت اتغدى عنده يوما ، اذ دخل عليه جار له . وكان الجار لى صديقا . فلم يعرض عليه الغداء . فاستحييت انا منه فقلت : لو اصبت معنا مما ناكل . قال : قد — والله — فعلت . قال الكندى : ما بعد الله شىء . قال : فكفنه والله يا ابا عثمان كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه ولم

اكل لشهد عليه بالكفر : ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا .

قال عمرو : بينا انا ذات يوم عنده اذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الاخرى . فصاح : اى قصاف ! فقالت مجيبة له : بئر وحياك . فكانت الجارية فى الذكاء ، اكثر منه فى الاستقصاء . قال معبد : نزلنا دار الكندى اكثر من سنة نروج له الكراء ، ونقضى له الحوائج ونفى له بالشرط . قلت : قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشـــوار العلوفة ، وان يلقوا عظما ، ولا يخرجوا كساحه . وان يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى فى بيته . وكان فى ذلك ينتزل عليهم ، فكانوا لطيبه وافراط بخله ، وحسن حديثه ، يحتملون ذلك .

قال معبد : فبينا انا كذلك اذ قدم ابن عم لى ومعه ابن له ، واذا رقعة منه قد جاءتنى : « ان كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين ، احتملنا ذلك . وان كان اطماع السكان فى الليلة الواحدة ، يجـــر علينا الطمع فى الليالى الكثيره » . فكتبت اليه : « ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه » . فكتب الى : « ان دارك بثلاثين

● قصاف : اسم الجارية .
● النشوار : ما تبقيه الدابة من العلوفة .
● الكساحة : مثل الكناسة .
● يتنزل : يتدرج فى لطف .

درهما ، وانتم ستة ، لكل راس خمسه . فاذا قد زدت رجلين ، فلابد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين ؟ . فكتب اليه : « وما يضرك من مقامهما ، وثقل ابدانهما على الارض التى تحمل الجبال ، وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكتب الى بعذرك لاعرفه » ولم ادر انى اهجم على ما هجمت ، وانى اقع منه فيما وقعت فكتب الى :

« الخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة : وهى قائمة معروفه . من ذلك سرعه امتلاء البالوعة ، وما فى بنقيتها من شدة المؤنه . ومن ذلك ان الاقدام اذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح المطينه ، وعلى أرض البيوت المجصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة . فينتشر لذلك الطين ، وينقلع الجص ؛ وينكسر الخشب . مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء وتكسرها لفرط الثقل . واذا كثر الدخول والخروج والفتح والاغلاق والاقفال وجذب الاقفال ، تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات . واذا كثر الصبيان ، وتضاعف البوش ؛ نزعت مسامير الأبواب ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل حوزة . حفر فيها آبار الددن ، وهشموا بلاطها

● الأجذاع : جمع جذع ، وهو سهم السقف .
● الرزة : الحديدة التى يدخل فيها القفل .
● البوش : (بالفتح والضم) الجماعة من الناس المختلطين والعمال .
● الددن : اللهو واللعب . ويريد بحفر الددن : الحفر التى يحفرها الصبيان ليرموا فيها الأكر .

بالمداحى . هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد ، وخشب الرفوف .

واذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء ، احتيج من صب الماء واتخاذ الحبة القاطرة ، والجرار الراشحة ، الى اضعاف ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكل اسفله ، وتناثر أعلاه ، واسترخى اساسه ، وتداعى بنيانه ، من قطر حب ورشح جرة ، ومن فضل ماء الدار ، ومن سوء التدبير ، وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبز والطبخ ومن الوقود والتسخين ، والنار لا تبقى ولا تذر ، وانما لدور حطب لها ، وكل شيء فيها من متاع فهو اكل لها . فكم من حريق قد اتى على اصل الغلة ، فكلفتهم اهلها اغلظ النفقة ، وربما كان ذلك عند غاية العسرة ، وشدة الحال ، وربما تعدت تلك الجناية الى دور الجيران ، والى مجاورة الأبدان والأموال . فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته ، لكان عسى ذلك أن يكون محتملا . ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويكثرون من لائمته وتعنيفه .

نعم ؛ ثم يتخذون المطابخ فى العلالى على ظهور السطوح ، وان كان فى ارض الدار فضل وفى صحنها متسع . مع ما فى ذلك من الخطار بالأنفس ، والتغرير بالأموال ، وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد ، وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم ، خبىء مستور : من ضيف مستخف ، ورب دار متوار ، ومن شراب مكروه ، ومن كتاب متهم ، ومن مال جم اريد دفنه ، فاعجل الحريق اهله عن

دلك فيه ، ومن ذلك حالات كثيرة ، وامور لا يحب الناس ان يعرموا بها . ثم لا يغصبون التنانير ، ولا يمكنون للقدور . الا على متن السطح ، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب الا الطين الرقيق والشيء الذى لا يقى . هذا مع خفة المؤنة فى احكامها وأمن القلوب من المتالف بسببها . فان كنتم مقدمون على ذلك منا ومنكم وانتم ذاكرون ، فهذا عجب ! وان كنتم لم تحتملوا بما علمتم فى اموالنا ، ونسيتم ما عليكم فى اموالكم ، فهذا اعجب !

ثم ان كثيرا منكم يدافع بالكراء . ويماطل بالأداء ؛ حتى اذا جمعت اشهر عليه ، فر وخلى أربابها جياعا ؛ يتقدمون على ما كان من حسن تقاضيهم واحسانهم ؛ فكان جزاؤهم وشكرهم انتطاع حقوقهم والذهاب باتوانهم . ويسكنها الساكن حين يسكنها ، وقد كسحناها ونظفناها ، لتحسن فى عين المستأجر ، وليرغب فيها الناظر ، فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه الا النفقة الموجعة . ثم لا يدع مترسا الا سرقه . ولا سلما الا حمله ؛ ولا نقضا الا اخذه ، ولا برادة الا مضى بها معه ؛ ويدع دق الثوب . والدق فى الهاون والميجان فى ارض الدار ، ويدق على الأجذاع والحواضن والرواشن ، وان كانت الدار مقرمدة او بالآجر

- الحبية : جمع حب (بالضم) وهو الخابية او الجرة .
- النقض (بالضم والكسر) : المنقوض . يريد حجرا ونحوه .
- البرادة : الاناء يبرد الماء .
- الحواضن : يريد الأعمدة التى تدعم السقوف .
- الرواشن : جمع روشن ، وهى الكوة ، اى النافذة .

معروشه ، وقد كان صاحبها جعل فى ناحية منها صخرة ، ليكون اندق عليها ، ولتكون واقية دونها ، دعاهم التهاون والقسوة ، والغش والغفلة الى ان يدقوا حيث جلسوا ، والى الا يحفلوا بما افسدوا : لم يعط قط لذلك ارشا ولا استحل صاحب الدار ، ولا استغفر الله منه فى السر . ثم يستكثر من نفسه فى السنة اجراح عشرة دراهم ، ولا يستكثر من رب الدار الف دينار فى الشهر . ايذكر ما يصير اليه البائع قلته ، ولا يذكر ما يصير اليه مع كثرته ؟ .

هذا ، والايام التى تنقض المبرم ، وتبلى الجدة ، وتفرق الجمع المجتمع ، عاملة فى الدور ، كما تعمل فى الصخور ، وتأخذ من المنازل ، كما تأخذ من كل رطب ويابس ، وكما تجعل الرطب يابسا هشيما ، والهشيم مضمحلا ، ولانهدام المنازل غاية قريبة ، ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتع بها والمنتفع بمرافقها . وهو الذى ابلى جدتها وتحلاها ، وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيره . فاذا قسنا الغرم عند انهدامها باعادتها ، وبعد ابتدائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها واصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما اخذنا من غلاتها ، وارتفقنا به من اكرائها ، خرج على المسكن من الخسران ، بقدر ماحصل للساكن من الربح . الا ان الدراهم التى

● الأرش : الدية والجائزة .
● تحلاها : اى تمتع بحلاوتها وجدتها .
● ارتفقنا : انتفعنا .

اخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتى اخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة . وهذا مع سوء القضاء ، والاحواج الى طول الاقتضاء . ومع بغض الساكن للمسكن ، وحب المسكن للساكن . لان المسكن يحب صحة بدن الساكن ، ونفاق سوقه ان كان ماجرا . وتحرك صناعته ان كان صانعا . ومحبة الساكن ان يشغل انه عنه المسكن كيف شاء . ان شاء شغله بعمارته ، وان شاء بزمانه ، وان شاء بحبس ، وان شاء بموت . ومدار مناه أن يشغل عنه . ثم لا يبالى كيف كان ذلك الشغل ، الا انه كلما كان اشد كان احب اليه ، وكان اجدر ان يأمن ، واخلق لأن يسكن . وعلى انه ان فترت سوقه أو كسدت صناعته ، الح فى طلب التخفيف من اصل الغلة ، والحطيطة مما حصل عليه من الاجرة . وعلى انه ان اتاه الله بالأرباح فى تجارته ، والنفاق فى صناعته ، لم ير أن يزيد قيراطا فى ضريبته ، ولا ان يعجل فلسا قبل وقته .

ثم ان كانت الغلة صحاحا دفع اكثرها مقطعة ، وان كانت انصافا وارباعا دفعها قراضة مفتتة . ثم لا يدع مزابنا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا الا دسه فيه ودلسه عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب . فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا ، حلف بالغموس انه ليس من دراهمه ولا من ماله ، ولا رآه قط ولا كان كان فى ملكه . فان كان الرسول جارية رب الدار

● الغموس : اليمين الكاذبة ، لأنها تغمس صاحبها فى الاثم .

افسدها وربما احبلها ، وان كان غلاما خدعه وربما شطر به . هذا مع الاشراف على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم . وربما استضعف عقولهم ، وطمع في فسادهم وعيبهم . فلا يزال يضرب لهم بالأسلاف ، ويغريهم بالشهوات . ويفتح لهم ابوابا من النفقات ، ليعيبهم ويربح عليهم . حتى اذا استوثق منهم ، اعجلهم وحزق بهم ، حتى يتقوه ببيع بعض الدار ، او باستدهان الجميع ، ليربح — مع الذهاب بالأصل — السلامة ، مع طول مقامه — من الكراء . وربما جعله بيعا في الظاهر . ورهنا في الباطن . فحينئذ يقتضيهم دون المهلة . ويدعيها قبل الوقت .

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء ، ان يدعي ان له شقيصا وان له يدا ليصير خصما من الخصوم ، ومنازعا غير غاصب . وربما اخذهم ومعه امرأة يفجر بها ، فيجعل استئجار البيوت وتصفح المنازل ، علة لدخولها والمقام ساعة فيها . فاذا استقر في المنزل ، قضى حاجته منها ، ورد المفتاح . وربما اكترى المنزل وفيه مرمة ، فاشترى بعض ما يصلحها ، ثم يتوخى عاملا جيد الكسوة ، وجيرانا اصحاب آنية وآلة ، فاذا شغل العامل وغفل ، اشتمل على كل ما قدر عليه ، وتركهم

● الأسلاف : جمع سلف ، اى لا يزال يغريهم باقتراضهم المال
● حزق بهم ، شدد عليهم .
● الشقيص : النصيب .

يمسكمون . وربما استأجر الى جنب سجن لينقب اهله البه . والى جنب سراف لينقب عليه . طلبا لطول المهله والستر . ولطول المدة والأمن . وربما جنى الساكن ما يدعو الى عدم دار المسكن ، بان يقتل قتيلا او يجرح شريفا ، فيأبى السلطان الدار — واربابها اما غيب واما أيتام واما ضعفاء — فلا يصنع شيئا دون ان يسويها بالأرض .

وبعد . فالدور ملقاة ، واربابها منكوبون وملقون . وهم شد الناس اغترارا بالناس ، وأبعدهم غاية من سلامة الصدور . وذلك ان من دفع داره ونقضها وساجها وابوابها مع حديدها وذهب سقوفها ، الى مجهول لا يعرف ، فقد وضعها فى مواضع الغرر وعلى اعظم الخطر .

وقد صار فى معنى المودع وصار المكرى فى موضع المودع . ثم ليست الخيانة وسوء الولاية الى شىء من الودائع اسرع منها الى الدور . وايضا ان اصلح السكان حالا من اذا وجد فى الدار مرمة فوضوا اليه النفقة ، وان يكون ذلك محسوبا عند الأهله ، الذى يشفف فى البناء ويزيد فى الحساب . فما ظنك بقوم هؤلاء اصلحهم وهم خيارهم . وانتم ايضا ربما اكريتم مستغلات غيركم . بأكثر مما اكريتموها منه . فسيروا فينا كسيرتكم فيهم ، واعطونا

● ساجها : خشبها .
● مواضع الغرر . الخطر .
● يشفف : ينقص .

من نفسكم مثل ما تريدونه منهم . وربما بنيتم فى الأرض ، فاذا صار البناء بينائكم — وان كانت الأرض لغيركم — ادعيتم الشركة ، وجعلتموه كالاجازة ، وحتى تصيروه كتلاد مال او موروث سلف .

وجرم آخر ، وهو انكم اهلكتم اصـــول اموالنا ، واخربتم غلاتنا ، وحططتم بسوء معاملتكم اثمان دورنا ومستغلاتنا ، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير واهل الثروة ، ومن اعين العوام والحشوة . وحتى بدافعوكم بكل حيلة ، وصرفوا اموالهم فى كل وجه ، وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولا ارسله مثلا ، وعاد علينا حجة وضررا . وذلك انه قال : « غلة الدار مسكة وغلة النخل كفاف ، وانما الغلة غلة الزرع والنسولتين » .

وانما جر ذلك علينا حسن اقتضائنا ، وصبرنا على ســـوء قضائكم . وانتم تقطعونها علينا وهى عليكم مجملة ، وتلوونا بها وهى عليكم حالة . فصارت كذلك غلات الدور — وان كانت اكثر ثمنا ودخلا — اقل بمنا واخبث اصلا ، من سائر الغلات . فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم ، اذ كنتم احضر اذى وادوم شرا . ثم كانت هذه صفتكم وحياتكم ومعاملتكم فى شىء لابد لكم منه ، فكيف كنتم لو امتحنتم بما لكم عنه مندوحة

● الحشوة : بكسر الحاء وضمها : رذال الناس
● مسكة : اى ما يمسك الرمق من طعام وشراب .
● النسولتين : الابل والغنم . وغلتهما أولادهما .

والوجوه لكم فيه معرضة ، وانتم فيه بالخيار وليس عليكم طريق للاضطرار أ .

وهذا مع قولكم : ان نزول دور الكراء اسرب من نزول دور الشراء . وقلتم : لأن صاحب الشراء قد اغلق رهنه واشرط نفسه ؛ وصار بها ممتحنا وبثمنها مرهنا . ومن اتخذ دارا ؛ فقد اقام كفيلا لا يخفر وزعيما لا يغرم . وان غاب عنها حن اليها . وان اقام فيها الزمته المؤن وعرضته للفتن : ان أساءوا جواره ، وانكر مكانه ، وبعد مصلاه ، ونأت عنه سوقه ، وتفاوتت حوائجه ، ورأى انه قد اخطأ فى اختيارها على سواها ؛ وانه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها . وان من كان كذلك ؛ فهو عبد داره وخول جاره . وان صاحب الكراء الخيار فى يده والأمر اليه ، فكل دار هى له متنزه ان شاء ، ومتجر ان شاء ؛ ومسكن ان شاء . لم يحتمل فيها اليسير من الذل ، ولا القليل من الضيم . ولا يعرف الهوان ، ولا يسام الخسف ، ولا يحترس من الحساد . ولا يداري المتعللين . وصاحب الشراء يجرع المرار . ويسقى بكاس الغيظ ، ويكد بطلب الحوائج ، ويحتمل الذلة وان كان ذا انفة . ان عفا عفا على كظم ، ولا يوجه ذلك منه الا الى العجز ، وان رام المكافاة تعرض لأكثر مما انكره . قال رسول الله — ﷺ — : « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » .

وزعتم أن تسقط الكراء اهون ، اذا كان شيئا بعد شيء .

وان الشدائد اذا وقعت جملة ، جاءت غامرة للقوة فاما اذا تقطع وتفرق ، فليس يكترث لها الا من تفقدها وتذكرها . ومال الشراء يخرج جملة ، وثلمته فى المال واسعة وطعنته نافذة . وليس كل خرق يرقع ، ولا كل خارج يرجع . وانه قد أمن من الحرق والغرق وميل اسطوان وانقصاف سهم واسترخاء اساس وسقوط سترة وسوء جوار وحسد مشاكل . وانه اما لا يزال فى بلاء ، واما ان يكون متوقعا لبلاء . وقلتم : ان كان تاجرا فتصريف ثمن الدار فى وجوه التجارات أربح ، وتحويله فى اصناف البياعات أكيس . وان لم يكن تاجرا ، ففى ما وصفناه له ناه وفيما عددنا له زاجر . فلم تمنعكم حرمة المساكنة وحق المجاورة والحاجة الى السكنى وموافقة المنزل ، ان اشرتم على الناس بترك الشراء . وفى كساد الدور فساد لأثمان الدور ، وجراة للمستأجر ، واستحطاط من الغلة ، وخسران فى اصل المال . وزعمتم انكم قد احسنتم الينا حين حثثتم الناس على الكراء ، لما فى ذلك من الرخاء والنماء . فانتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم فى الكراء ، بل انما اردتم ان تضرونا بتزهيدكم فى الشراء . وليس ينبغى ان يحكم عن كل قوم الا بسبيلهم ، وبالذى يغلب عليهم من اعمالهم .

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية الى تهمتكم واخذ الحذر منكم . وليست لكم خصلة محمودة ، ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية . وقد اريناكم ان حكم النازلين كحكم المقيمين ، وان كل زيادة فلها نصيب من الغلة . ولو تغافلت

إك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك — على قدر ما رأيت منك — ان تلزمني ذلك ، فربما يتبين حتى يصير كراءَ الواحد ككراء الالف ، وتصير الاقامة كالظعن والتفريغ كالشغل . وعلى انى لو كنت أمسكت عن تقاضيك وتغافلت عن معرفتك ما عليك ، لذهب الاحسان اليك باطلا . اذ كنت لا ترى للزيادة قدرا .

وقد قال الأول * : والكفر مخبثة لنفس المنعم .

وقال الآخر :

تبدلت بالمعروف نكرا وربما ... نكر لمعروف من كان نكر

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة ، وبالعداوة التي بين أسد وكندة ، وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن . وسيعين الله عليك . والسلام) .

أرأيت الى هذه الرسالة الفكرية الفلسفية الدقيقة . وهذا الحوار الجيد العميق . وهذا التوليد والخلق . هنا ترتيب للفكرة ، وتنظيم للآراء ، واختيار ممتاز للكلمات . أسلوب مقنع . انتخاب لمفردات الحياة الواقعية المادية الملموسة . ايمان قوي بنظرية البخل . دفاع جاد في سبيلها

---

* قائل هذا البيت عنترة بن شداد . وصدر البيت : نبئت عمرا غير شاكر نعمة .

والدماع عنها . لقد نجح فى ان يجعل الساكن متهما ، جانيا ، حقودا ، لصا ، محتالا ، يتوسل بشتى الوسائل غير الحميدة لاستغلال المؤجر او المسكن كما يقول الجاحظ على لسان الكندى . ثم تلك السخرية التى استطيفت بها الرسالة من أولها الى آخرها . انها المراة التى يكتشف فيها الناظرون — عادة — وجوه الآخرين لا وجوههم . ولعل فى هذا تفسير للقبول الذى يلقاه ادب الجاحظ الساخر .

وفيه تفسير ايضا لقلة من يجد فيه مثارا لغضبهم ، كما يقول جوناثان سويفت الكاتب الانجليزى الساخر عن ادب السخرية عموما .

قص الرواة انه قيل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك واخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة فى ارنبة انفى لما أمست الا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه الف بيت لما طن منها بيت فى الف سنة .

ويروون ان اندلسيا قرا فى موطنه كتابى الجاحظ (البيان والتبيين) و (رسالة التربيع والتدوير) فهاجر اليه يريد لقاءه . ويزعمون ان هذا الأندلسى قال فى بعض حديثه : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء ابى عثمان .

كما كان ابن العميد يقول : ان الناس عيال عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة . وكان يقول ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا .

وعلى هذا النحو استهوت شخصية الجاحظ الأدباء فى عصره وبعد عصره ، فكان له اثر كبير فى الأدب العربى . وجاءت بعض الآثار الفنية متأثرة بأسلوبه . هناك ابو على الحاتمى ، من اهل القرن الرابع ، وضع حكاية على استاذه على بن هارون ، وصفها العصرى بانها طويلة فى نحو اربعة مجلدات . التزم فى كتابتها وصناعتها نفس المنهج الفنى الذى استطاع الجاحظ ان يجعله منهجا مقررا ، وفنا من الفنون الأدبية مقررا .

ولعل اقرب من يخطر بالبال من تلاميذ الجاحظ ممن افتنوا به ، وتاثروا به ابلغ الأثر ، ابو حيان التوحيدى ٣١٠ هـ — ٤١٤ هـ . كان التوحيدى من اكبر المعجبين بالجاحظ . يسلك فى تصانيفه مسلكه ، ويشتهى ان ينتظم فى سلكه كما يقول ياقوت الحموى فى (معجم الأدباء) . وكان يقول : « الجاحظ واحد الدنيا » ، ولذا كان يكثر من مطالعة آثاره ، ويعنى بكتاب الحيوان ، ويتوفر على تصحيحه . وقد بلغ من اعجابه به أن الف رسالة أسماها « تقريظ الجاحظ » . قال فيها معددا صفات الجاحظ : « ان مذهب الجاحظ مدبر باشياء لا تلتقى عند كل انسان ، ولا تجتمع فى صدر كل احد : بالطبع ، والمنشأ ، والعلم ، والأصول ، والعادة ، والعمر ، والفراغ ، والعشق ، والمنافسة ، والبلوغ ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد » .

لذا حمل التوحيدى لواء الطريقة الجاحظية ، فتجلت فى كتابته الخصائص العقلية الجاحظية . فقد كان لانكبابه على

مطالعة كتب الجاحظ فى سن مبكرة أثر فى تفتح ذهنه وانماء مواهبه الأصيلة ، نجدها ماثلة فى عناصر اسلوبه العامة ، كالمطابقة بين المعنى والمبنى ، والوضوح ، والصفاء ، والدقة ، والطرافة ، والبعد عن التكلف والتزويق المصطنع . ونجدها فى ضروب الصنعة كاستعمال الازدواج ، والمقابلة ، والتقسيم ، والتوفر على ايجاد ايقاعات صوتية وموسيقية ناشئة عن انتقاء الألفاظ ، واحكام بناء الجمل وتوازنها .

اثر الجاحظ فى بعض طلابه من ناحية أخرى . فمنهم من لخصوا بعض آثاره . كما فعل عبد اللطيف البغدادى ١٦١١ — ١٢٣١م ٥٥٧ — ٦٢٩ هـ ، الذى لخص كتاب (الحيوان) فى مؤلف سماه (اختصار كتاب الحيوان) . وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى ١١٥٥ — ١٢٥٩ م ٥٥٠ هـ — ٦٥٨ هـ الذى لخص الكتاب نفسه وسماه (روح الحيوان) . ومنهم من حاكى الجاحظ فى تأليفه فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات كابن قتيبة (عيون الاخبار) والمبرد (الكامل) وابن عبد ربه (العقد الفريد) وأبى بكر الصولى (الأوراق فى اخبار الخلفاء والشعراء) والآمدى وابن الفقيه الجغرافى بالقرن العاشر ، والبيهقى صاحب كتاب (المحاسن والمساوىء) والقزوينى ١٢٠٨ — ١٢٨٣ م ٦٠٥ — ٦٨٢ هـ والدميرى ١٣٤٩ — ١٤٠٥ م ٧٥٠ / ٨٠٨ هـ صاحب (حياة الحيوان الكبرى) .

أما فيما يتصل بكتاب « البخلاء » على نحو خاص ؛ فان تأثيره

كان قويا وممتدا . من حيث الموضوع ، والفكرة ، وطريقة المعالجة ، واللغة . فقد يلتهمه الأديب او المتأدب قبل ان يقدم على قراءة الحيوان والبيان والتبيين . ففى الكتاب قصص . وفيه حوار . وفيه جدل وفكر وفلسفة . وفيه حياة واقعية واشخاص معروفون . وفيه لون من الأدب النثرى الساخر . وقد تأثر الدكتور طه حسين بلغة هذا الكتاب . بل انا نجد انعكاسا واضحا لمقدمة البخلاء فى بعض كتابات طه حسين . حين يتصور قارئا يسأله ، ويحاول الاجابة عن تساؤلاته مثيرا من خلالها بعض القضايا والمسائل التى يريدها هو لا القارىء . والجدل مع الشخصيات او مع القارىء . والموسيقى الداخلية . واستخدام الحال بكثرة . وليس ثمة من ينكر اعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ ، وتقليده اياه فى تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية . بل ان السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التى يكشف عنها التامل الدقيق فى كتابات طه حسين ، موردها كتاب البخلاء للجاحظ . وما اكثر ما اشاد طه حسين بفكر الجاحظ وعقله واسلوبه وسخره وطريقته فى الحوار والجدل . وفى تعليق له على قصة الكندى يقول : (فى هذه السهولة وهذا اليسر والجمال يصور لنا الجاحظ الخصومات ، لا كما كانت تقع بين الملاك والمستاجرين فى بغداد ، بل كما تقع هنا فى القاهرة) ثم يذهب الى أن جمال النثر وتطوره عند الجاحظ قد مكن من انشاء البيان على انه علم ، (هذا الجاحظ الذى نتحدث عنه ربما كان اول من حاول ان يضع نظريات فى البيان) .

اما توفيق الحكيم ، الذى نهل من مناهل معـــروفة : يونانية وفرنسية واسلامية ، فانه اطال الوقوف عند الجاحظ فى كتاباته بشكل عام ؛ واشار الى تأثره به . لكن انعكاسات واشعاعات « البخلاء » كانت اوضح . وقد اقام كتابه (اشعب امير الطفيليين) على اثر قراءته للبخلاء . بل ان الحكيم فى بعض سلوكه يكشـــف عن نظرة معينة الى البخل ؛ تأثرت فى الأغلب الأعم باتجاه بخلاء لجاحظ . مستند الى منطق وفلسفة . حتى شهر الحكيم بالبخل بين صحابه ومريديه .

ويحدثنا توفيق الحكيم فى ذكريات شبابه أنه اطال الوقوف عند القرآن الكريم ، وكتابات الجاحظ ، والف ليلة وليلة . وانه يرى فى كتاب « البخلاء » آية فى التصوير الاجتماعى والنفسى . لقد اكتشف توفيق الحكيم فى شخصية الجاحظ الجانب الفنى ، بعد ان اوشك الاهتمام بكتابه الموسوعى (البيان والتبيين) ان يطمس نور كتابه البخلاء او وهج رسائله الفكهة مثل رســـالة التربيع والتدوير . وكاد الجاحظ الفنان ان يختفى وراء الجاحظ المعلم والبلاغى .

فى كتاب (اشعب) للحكيم نجد ملامح الصورة الوصفية ــ الاسكتش ــ واضحة عنده . ولعلها كانت محاولة منه للتوفيق بين الموروث الشرقى وبين المواصفات الشكلية الأوربية . والواقع ان الحكيم فى (اشعب) كان حريصا على أن يرســـم صورا من الحياة الاجتماعية العربية كما أراد الجاحظ ذلك فى البخلاء . فهو

لا بمعنى ان يرسم سيرة حياة لاشعب ؛ لأن لسيرة الحياة او « البيوجرافيا » انماط ليست كنمط كتاب اشعب . ولم تجر العادة بان تكتب سيرة حياة الطفيليين او من فى مستواهم من غمار الناس . فليست لهم بطولة تذكر او امجاد تروى . وانما قصارى ما يستطيعه المؤلف هو ان يعرض العصر من خلال عرض احد اشخاصه .

ولعل توفيق الحكيم لم يوفق كثيرا فى هذا العرض . اذ ان السور رغم تتابعها وحيويتها جاءت فى معظم الاحيان مفتقدة لعنصر التشكل ، قريبة الشبه من النوادر التى تحفل بها كتب الموسوعات فى الأدب العربى . واقصر توفيق الحكم على ما احس به فى مقدمة احدى طبعات الكتاب بأنه لم يفعل اكثر من تبسيط الموجز . وتبسيط المركز . لقد ظل اسير الدخلاء للجاحظ تماما .

يقول توفيق الحكيم فى مقدمة كتابه (اشعب امير الطفيليين ، ص٩ : (مادمنا فى صدد المعدة — اعنى معدة اشعب — فلابين للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من الوان الأدب . لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير ، من حوانيت اربعة مشاهير : الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادى وبديع الزمان ؛ فقد بهرنى حقا ، واسال لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف . غير انى وجدت كل هذا مبعثرا ضمن بضاعتهم . وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر ، كما وجدت اكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الأربعة . كل بنصها من حانوته نفس الوضع ، وبعرضها عين العرض .

فملأت يدى مما تخيرت من اطايبها ، وذهبت بها الى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته ، وخلطته ، وجعلت منه عجينة واحدة ، صنعت منها هذه القصة متصلة الفصول) .

فى هذا النص يظلم الحكيم بخلاء الجاحظ كثيرا . وينفى عن نفسه اعتماده الأول على هذا الكتاب فى المرتبة الأولى . ذلك ان قارىء (اشعب) لن يتردد فى أن يرد معظم الشخصيات ، والمواقف ، والفكر ، الى بخلاء الجاحظ . كما ان الذين ذكرهم الحكيم بعد الجاحظ ، كانوا عيالا عليه ، تأثروا به ، وحاكوه ، وساروا على نهجه . ولم يتوفر واحد منهم على تاليف مثل هذا الكتاب المتخصص فى البخل والبخلاء كما فعل الجاحظ . ولولا كتابه (حيل المكدين) وما يتصل بسراق الليل والنهار ، ما كانت حيل المقامات ؛ وما كان « البخلاء » فيها على النحو الذى قدم . ثم ، كيف يمكن اتهام بخلاء الجاحظ بأن الطرائف واللذائذ قد بعثرت فيه ، أو القيت على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . وكتاب البخلاء مصنف ، منسق ، رتبت قصصه ترتيبا ؟! وقدم له بمقدمة تبين الدافع الى تاليفه . وهى مقدمة غير تقليدية كما رأينا . ثم اتبعت برسالة سهل بن هارون فى فلسفة البخل .

ولا نوافق توفيق الحكيم فيما ذهب اليه من انه وجد القصص والأخبار والشخصيات بنصها عند كل من الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادى وبديع الزمان . انه لون من الوان المغالاة فى القول . لا تستند الى دعم حقيقى من النماذج والأدلة . لم

يات الحكيم بدليل واحد يؤكد زعمه بوجود التصص مكررة بتفصيلها ونصها : حيث يضعها كل منهم فى كتابه نفس الموضع ، ويعرضها عين العرض !! لا اظن ان هـذا الزعم على اطـلاقه صحيح . فالجاحظ هو صاحب الفضل الأكبر فى توجيه الحكيم نحو اشعب . ولم يفكر الجاحظ فى ان ينقل من احد بالنص . لأن الحكيم نفسه يذهب فى كتابه (فن الأدب) ص٣١ الى ان الجاحظ (أنشأ فنا جديدا بالنثر اقرب الى فن الكاريكاتير بالرسم قبل وجوده فى القرن السادس عشر عند رابليه فى كتاب (الاحلام المضحكة) وايراسم فى كتابه (تمجيد الحماقة) فهو من اسبق الكتاب الى التصوير الكاريكاتورى) . هذا هو الذى دفع الحكيم الى الاعتماد عـلى الجاحظ وحده ، وعلى (البخلاء) دون غيره من كتب الجاحظ عندما فكر فى كتابة (اشعب امير الطفيليين) . فهو يرى ان الجاحظ — وقد مضى على وفاته اكثر من الف عام — هو الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم فى الأدب العربى المعاصر ؛ لانه رفع علم التجديد ، وعلم الكتاب أن الأسلوب اداة للتعبير القويم عن النفس والفكر ، ولا وشى من اللغو ، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو . يقول فى كتابه (فن الأدب) الباب الثانى المعنون (الأدب العربى وتجدده) ص٣١ (.... وانى لموقن ان الجاحظ لـو استطاع ان ينظر الينا من عالمه الآخر ، لما انكر كثيرا من الأساليب التى ينشىء بها كتاب اليوم افكارهم . بل انه ، لفرط صدقه فى تصوير نفسه وعصره ، وصراحته فى التعبير عن المشاعر الانسانية الثابتة فيه وفى الناس — قد لا يرى الا تغييرا يسيرا فى المحيط

الأدبى ، لا فى الشرق وحده ، بل فى كل مكان وزمان يوجد به ادب وادباء وكتاب ومؤلفون) .

ان الحكيم لم يحدث الا تغييرا يسيرا جدا فى بعض القصص التى استمدها من البخلاء . فى صفحة ١٩ يتحدث عن علاقة الشعب بالكندى ، وعن موقف الكندى من سكان بيته ، وعن حيلته التى احتال بها عليهم مدعيا أن زوجه وحمى . انها مواقف للكندى أوردناها كما هى فى البخلاء ، نقلها الحكيم مع شىء يسير جدا من التصرف . ومع تقطع الحادثة تقطيعا حواريا ان صح التعبير . ولكى يقدم الكندى للقارىء المعاصر الذى لا يعرفه أجرى هذا الحوار بين الشعب وبين جاريته ، حين تسأله عن داره ولماذا لم يدعها الى طعامه ، فيقول :

ا ـ دارى ؟ أما علمت انى اسكن عند الكندى ؟

ـ ومن الكندى ؟

ـ هو ابخل اهل الأرض طرا ، وهل يستطيع ساكن أو جار ان يصنع طعاما دون أن يبعث الى صاحب الدار بطبق ؟ انه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : ان فى الدار امراة حبلى ، وان الوحمى ربما استقلت من ريح القدور الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها واو بغرفة او لعقة ، فان لم تفعلوا ذلك بعد اعلامى اياكم فكفارتكم ان استقلت غرة عبد او امة) . فكان بذلك يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام ، فيأكل هو

وعياله ويقول لهم : « انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع ، فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم الوان » .

ونفس القصة — قصة الكندى مع ساكنه الذى استضاف اقاربه — والرسائل المتبادلة بينهما ، والحوار المطول الذى عرضناه ، نقلها — جميعا — توفيق الحكيم ص٣٩ : ص٤٣ . وموقف الكندى من الضيوف الذين اكلوا طعامه فتحول من الغنى الى الفقر فى نظرهم ، التى اوردها الحكيم فى صفحتى ٤٣ ، ٤٤ منقولة عن البخلاء . وحكاية البخيل الذى ادعى السكر ليسترد قميصا كان قد استعاره منه أحدهم [جعله الحكيم اشعب] ليعقد حوارا بين اشعب بصفته المعروفة — التطفل الى جانب تفضيله المعدة والاكل على كل شىء — والبخيل الذى يحرص على ان يأكل عند الآخرين ولا يطعم احدا (ص٥١) نقلها الحكيم عن البخلاء للجاحظ نقلا .

وهذا يؤكد اصالة كتاب الجاحظ ، واستمراريته ، وتأثيره القوى ؛ وأن من حاولوا الابتعاد عن هذا التأثر لم يزدادوا الا اقترابا وتأثرا .

ولا ننسى ان محمود بيرم التونسى فى بعض ازجاله سخر من البخلاء ، ومن الوسائل التى يتفننون بها للادخار ، وللاقتصاد الشديد . وقد اختار بيرم شخوصه من نوعية خاصة ، ومن فئة معينة ، لها فكرها وثقافتها وسلوكها . وهم الشيوخ او القراء :

فى مناسبات المآتم أو الأفراح أو ليالى الاحتفال بالموالد . وقد صنع بيرم معهم صنيع الجاحظ . وان لم نجد اشارات عند بيرم بانه قرأ البخلاء أو حاكاه .

أما الأستاذان على الجمبلاطى وعبد المنعم قنديل ، فانهما تعاملا مع كتاب البخلاء بشكل مباشر . حين أصدرا فى عام ١٩٧٢ كتابا أسمياه (بخلاء الجاحظ فى قصص) . قالا فى المقدمة : (وهذه القصص لم تقتصر فى كتابتها على « المادة » التى قدمها الجاحظ فقط ، وانما اضفنا اليها ما اقتضته الضرورة الفنية حتى تكون خليقة بالامتاع والاثارة .... وانما ركزنا عملنا على استيحاء قصص من هذه النوادر ، تتوافر فيها المتعة والاثارة ، الى جانب تبغيضها لصفة البخل ، بحسبانه رذيلة لا تلتصق الا بالنفوس المجدبة الشحيحة) .

ولاول وهلة يظهر أن الكاتبين حاولا وضع عناوين لافتة لبعض القصص التى اختاراها من كتاب البخلاء . وقد اعتمد اعتمادا رئيسيا واضحا على الكتاب . وبدت الاضافة من عندهما ضئيلة ، فلم يخرجا من اسر البخلاء للجاحظ . اللهم الا اللغة والأسلوب . فقد توسلا بطريقة عصرية ، وبلغة سهلة ، وتقديم مشوق . وكأنما كانا يقدمان هذه القصص للقارىء العادى .

وجاءت صياغتهما للعناوين على هذا النحو : الحبلى التى لا تلد ابدا — تأكل الخروف فى بضعة أيام — ثوب واحد يكفينى

مدى الحياة — بسبب الضيوف — يكرههم بطعام الآخرين — جائزة الكذب — اعتزل المنصب ليفرغ للبخل — مفتاح الشر — عبادة المال — افضل الموت على الجوع — ادخرت لجهاز ابنتي — ابغض الحلال اكل هذا الجدي — الوصايا العشر على المائدة (موسى بن جناح وتفننه فى منع الضيوف من الاقبال على الطعام ، بتعكير مزاجهم حتى لا يأكلوا بنهم . من ذلك كتابته عشر وصايا علقها فى غرفة المائدة ، وكلها تحض على الجوع . وتصف مساوىء الشبع ، وتنذر بالموت وانهالك كل من يملأ معدته بالطعام .

وهذه الوصايا العشر هى : ❊ « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ❊ « ما ملأ ابن آدم وعاءا شر من بطنه » ❊ « البطنة تزيل الفطنة » ❊ « المعدة بيت الداء ، والحمية اصل الدواء » ❊ « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع » ❊ « كثرة الأكل تؤدى الى التخمة ، والتخمة تؤدى الى الهلاك » ❊ « جوعوا تصحوا » ❊ « الصيام مرضاة للرب ، وعصمة من الفقر » ❊ « ثلاث مهلكات للانام : اشدهم ادخال الطعام على الطعام » ❊ « اذا اراد الله شرا بعبده سلط عليه بطنه ») — دجاجة تعزل موظفين — يتعاونون على الشح والتقتير — راس الحكمة جمع المال وعدم انفاقه — اعطنى مالا وسمنى ما شئت .

أراد الكاتبان المعاصران ابراز المضمون والمعنى الكامن وراء كل قصة من قصص البخلاء . وكانت العناوين موفقة فى هذه الدلالة الى حد كبير . واستعانا بعنصر القص ، والسرد ، والحكى .

ووصفا الأماكن لتهيئة الجو العام الذى يجرى فيه الحدث . كما حاولا تقديم الشخصيات تقديما خارجيا . وذلك بابراز الملامح العامة الشخصية . ويلاحظ انهما استخدما الحوار بشكله القصصى المعروف الآن ، لا كما ورد عند الجاحظ عندما كان يستخدم انعال القول . انهما يجهدان فى ادارة الحوار بشكل درامى .

وثمة قصص مشتركة تناولها الحكيم من ناحية ، وعلى الجنبلاطى وعبد المنعم قنديل من ناحية اخرى . مثال ذلك ما ورد عند الجاحظ من نوادر عن الكندى . وبخاصة فيما يتعلق بادعائه ان زوجته وحمى . ادارها الحكيم بين اشعب وجاريته رشا فى حين جعل المؤلفان البطولة للكندى وامراته . واذا كان الحكيم قد نقل من البخلاء بعض الفقر والعبارات ؛ فان الكاتبين تصرفا تصرفا مقبولا ، وحرصا على ان تكون اللغة سهلة مبسطة .

كما ان قصة الخزامى فى البخلاء كتفها المؤلفان واختارا لها عنوان « اعطنى مالا واسمنى ما شئت » ، استعان بها الحكيم وجعل طرفا الحدث فيها « الكندى » و « اشعب » حيث ذهب اشعب الى الكندى ، ليقرضه نقودا كى يشترى القوس والنشاب ؛ اذ بالكندى يعطيه عسلا ليبيعه ويشترى ما يحتاجه .

كذلك الحال بالنسبة لفكرة قصته « زبيدة بن حميد » تناولها المؤلفان تحت عنوان « مفتاح الشر » . فى حين وضعها الحكيم متضمنة فى احدى قصص اشعب والكندى . وانفرد المؤلفان بكثير

من القصص الأخرى التى لم يتناولها الحكيم ولم يعالجها فى كتابه . مثل قصة معاذة العنبرية ، ولبنى الناعطية ، واحمد بن خلف ، والحزامى ، وابى سعيد المدائنى . وقد وضع المؤلفان لكل قصة من هذه القصة عنوانا . فالأولى وردت تحت عنوان « بائع الخروف فى بضعة أعوام » . وجاءت الثانية تحت عنوان « ثوب واحد يكفينى مدى الحياة » . والثالثة تحت عنوان « مائدتى حرم مقدس » . وهكذا . وكان من الممكن أن يقف توفيق الحكيم عند معظم القصص التى وردت فى كتاب البخلاء . وبخاصة ان من هذه القصص ما لو تناوله الحكيم لقدمه بشكل فنى جذاب . ولخدم كتاب الجاحظ خدمة جليلة . لكنه لم يحتفل بكثير من القصص التى صاغها الجاحظ فى البخلاء ، واوهمنا انه استعان بكتب تراثية أخرى . ولم يكن ثمة ما يدعو لذلك ؛ اذ فى البخلاء ما يكفى ويغنى .

هذه هى رحلة واحد من كتب التراث العربى . قطعها جادا مؤثرا منذ القرن الثانى للهجرة حتى العصر الحديث . مازالت نماذجه حية ، وصوره مشرقة . ومواقفه ساخرة . وما زال الكتاب كله بمثل النبع الثر الغزير لكتاب القصة والمسرح ، ولرسامى الكاريكاتير ! .